عـاهـدتـك

حسن وميّان ورأس الشيطان

" روايـــة "

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني محفوظة للناشر.

روايــة: عاهدتك (حسن و ميَّان و رأس الشيطان).

الكاتب: سيــد جمــال.

الطبعة الأولى: إبريل 2017

رقم الإيداع: 8608 / 2017

الناشــر:

"دار أدباء 2000 للنشر والتوزيع"

المدير العام: **منة عامر.** Mobile: 01099654718

E.mail: **Odabaa2000@gmail.com**

Website: **http://entashaaer.wix.com/odabaa2000**

Facebook: **https://www.facebook.com/Odabaa2000**

تصميم الغلاف: **محمد علي.**

تصحيح لغوي: **محمد بن عماد آل مسيل.**

جميع الحقوق @ 2017 محفوظة للناشر

"دار أدباء 2000 للنشر و التوزيع"

يمنع منعاً باتاً بدون إذن خطي معتمد من الناشر:-

نسخ أو إستعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيهاالتسجيل الفوتوجرافي و التسجيل على أي أشرطة أو أقراص صلبة أو مرنة مقروءة أو النشر عبر الإنترنت أو أي برنامج إلكتروني أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها أدوات حفظ المعلومات و إسترجاعها.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **"دار أدباء 2000 للنشر و التوزيع".**

إهـــداء

إلى .....

من تلميذ إلى أستاذه ..

أ. مصطفى زكي (مدرس اللغة العربية بالصف الأول الابتدائي)

أ. أحمد محمد (مدرس اللغة العربية بالمرحلة الإعدادية)

و إلى .....

أمـي الحبيبة

وأبـي الغالي

بارك الله عمرهما وحفظهما من كل شر

شكر وامتنان

إلى كل من ساهم في خروج هذا العمل للنور

ولو بمعلومة

أو فكرة

أو رأي

شكراً لمن له فضل عليّ

و لو بشق كلمة

جزاكم الله كل خير

هو حبٌّ وحيدٌ...

يأتي أولاً أو يأتي أخيراً .. لا يهم

تصادفه أو يصادفك .. لا يهم

تبحث عنه أو يبحث عنك .. لا يهم

تجده أو يجدك .. لا يهم

تَمَسَّكْ به ولا تفقده .. هذا الأهم

سيـــد جمـــال

عاهدتك

حسن وميَّان ورأس الشيطان

رواية

سيد جمال

"مقدمة"

في دروب الحياة نسير، نمر بمحطات منها السيئ ومنها الأسوأ، حتى نتوقف في إحدى المحطات فنتوهم أنها الأجمل، وأحياناً تغرينا البداية فنظن أنها محطة الوصول، ولكن سرعان ما يوقظنا صوت القطار ونكتشف أنها محطة عبور.

ونمضي مع الأيام، نطارد الأحلام، نتوه ونشتاق، نغوص في الأعماق، تفنى السنون الخضر، ويمضي قطار العمر.

قطار العمر يمضي سريعاً، دونما شعور منا، دون أن ندرك ما فاتنا، وفجأة نتوقف: "ربيع العمر ولَّى، ولم نحقق أحلامنا، لم ننجح، لم نصل ... يا أسفاً على وقتٍ قتلناه! يا أسفاً على شبابٍ أضعناه! ويا أسفاً على حبٍّ فقدناه! ..."

يدفعنا الخوف -أحياناً- إلى التخلي عن أجمل أحلامنا، نخاف من الفشل فنتوقف عن المحاولة، نخاف من بريق الضوء فنألف الدجى، نخاف من الحب فنتخلى عن سعادتنا ولا ندري أن الخوف من الحب هو الحب ذاته، تأتينا السعادة في صور عديدة ولا نغتنمها، تتراجع خطواتنا ونرضى بالاستسلام.

وما بين الخوف والاستسلام تضيع السعادة، فنفقد لذة الحياة، ونفقد الإحساس بالزمان والمكان، فتشيخ الروح ويبقى الجسد كآلةٍ صماء حتى تغادره الروح ويصير إلى التراب.

امض بالإيمان والعمل، امض بالحب والأمل، لا تخش الحب ولا تخجل منه؛ فما كان الحب الحلال عيبًا، ومن ذا يملك أن يحرم حلالاً أحلَّه الله؟!

ولا تعجب من تغير القلوب، فطبيعة القلب التقلب؛ يعتل ويبرأ، يرتاع ويهدأ، يغتم ويهنأ، هكذا القلب فلا تعجب.

سيــد جمــال

"وأتوا البيوت من أبوابها"

علاقة تقليدية ... لم يكن حبا كما الروايات ... ولكن البداية كانت وردية.

"حسن" شاب حالم وطموح، لطالما سخر منه من سمعه وهو يتحدث عن فتاة أحلامه وصفاتها الخيالية...

لم يعبأ بدهشتهم من أحلامه التي يرونها مستحيلة، ومضى يكد ويتعب في عمله من ناحية ودراساته العليا من ناحية أخرى.

تخرج حسن في كلية العلوم بجامعة القاهرة، ثم عمل مهندسًا كيميائيًا بإحدى شركات البترول، وكان حريصا على استمرار البحث والتعلُّم بجانب عمله، كما كان مجتهدًا ومتميزًا في عمله بشهادة الجميع.

مضت سنوات غفل فيها حسن عن أحلامه وأغفل التفكير في حياته العاطفية حتى استفاق خوفًا من انقضاء العمر وبدأ التفكير الجاد في الإرتباط بفتاة تحقق له الاستقرار والسعادة وتأخذ بيده إلى النجاح.

سَعِدَ المقربون من أصدقائه وأقربائه حين أسَرَّ إليهم برغبته في الارتباط، وعرض بعضهم مساعدته في البحث عن شريكة حياته!

وفي ليلة صيف من ليالي سبتمبر التقى حسن مَيَّان ، سمع عنها من إحدى قريباته(١) ثم ذهب لخطبتها بطريقة تقليدية أشبه بفكرة الخاطبة أو ما يُسمَّى في مجتمعنا "زواج الصالونات".

- جئتك اليوم بهدية قد طال بحثك عنها.

-- هدية؟!

---

(1) ابنة عمه، واسمها "سلمى"

- فتاة حسناء، اسمها "مَيَّان"، رائعة الجمال، كزهر نيسان...

-- ولكن...

- أعرف ما تريد قوله؛ ستقول إنك لا تعرفها ولم يسبق لك رؤيتها...

لا عليك، أعطني الضوء الأخضر وسأدبر كل شيء.

-- ولكن الأمر ليس بهذه السهولة كما تظنين يا سلمى...

- قلت لك اترك الأمر لي.

الخميس القادم حفل زفاف إحدى صديقاتها، سأدبر لك دعوة لحضور الحفل من جانب العريس، وهناك يمكنك رؤيتها...

-- وكيف أعرفها؟

- سأحرص أن أكون بجوار "مَيَّان" طوال الحفل وفي لحظة وصول العروسين سأميل عليها أُحَدِّثها؛ حينها تعرف أنها الفتاة المقصودة، وفي نهاية الحفل سأُعرِّفها بك.

وافق حسن على الفكرة مع عدم اقتناعه الكامل بتلك الحيلة!

وفي ظهيرة يوم الحفل تلقى خبر وفاة والد أحد أصدقائه، فكان لزاماً عليه أن يذهب لحضور الجنازة والبقاء بجوار صاحبه في مثل تلك الظروف.

أبلغ "سلمى" واعتذر منها، ثم ذهب على الفور لحضور الجنازة.

وبعد أسبوعين عادت إليه "سلمى" :

- جئتك بحيلة أخرى لتتمكن من رؤية "مَيَّان".

-- دعينا من حيلكِ، لست مرتاحًا لهذه الطريقة، ولم أكن مقتنعًا بها من البداية.

- لنرى حيلك الذكية!

-- لا يحتاج الأمر لكل هذه الخطط والحيل، "واتوا البيوت من أبوابها"

لِمَ لا أراها بالطريقة المباشرة، "الرؤية الشرعية"؟

- لك ما تريد، أسأل الله أن يؤلف بين قلوبكما، وأن يكتب لك الخير حيث كان...

-- آمين.

****

" ما أجمل البدايات ! "

أَرسَلَ حسن رسولًا إلى والد "مَيَّان" للتمهيد للأمر وتحديد موعد اللقاء، وبالفعل جاءه رسوله بأن يذهب لمقابلة والد مَيَّان بعد ثلاثة أيام.

وها هو الآن يستعد للذهاب...

ارتدى أجمل الثياب، وتَعَطَّر بعطره المفضل، ومضى قاصدًا منزل ميَّان وهو في كامل أناقته.

لم يكن منزل مَيَّان بعيدًا عن منزله كثيرًا، فذهب سيرًا على الأقدام، مستمتعًا بجمال قريته الريفية الصغيرة، بمائها وخضرتها وسمائها الزرقاء، مستنشقاً ذلك الهواء العليل، يسمع تغريد البلبل، وزقزقة العصفور، وهديل الحمام، وصياح الديك، ومأمأة الخروف، وثغاء الماعز، وخواء البقرة، ونباح الكلب، ومواء القطة، وصهيل الحصان، وخرير الساقية، تتناغم وتشدو في تناسق وانسجام وعند وصوله قُوبل بترحابٍ شديد من أهل مَيَّان، وبعد حوالي عشر دقائق من الحديث مع أبيها وأخيها دخلت مَيَّان بالعصير ومن أول وهلة أخذت لُبّه وبصره بجمالها وابتسامتها الرقيقة.

ألقت السلام وجلست على الكرسي المقابل لحسن الذي رد السلام ثم صمت عن الكلام، ظل يرسل إليها النظرات الصامتة فتجيبه بابتسامتها الخجولة الساحرة.

ثم انتبه أنه أخجلها بنظره المستمر إليها فاعتدل في جلسته وحاول أن يخلق حواراً معها، قدَّمَ نفسه إليها ثم دار بينهما حديث قصير تحدثت فيه مَيَّان بكُلَيماتٍ قليلة لم يسمع حسن أغلبها بسبب صوتها الخجول.

أشار إليها أخوها بالانصراف فقامت من مجلسها وانصرفت، بعدها مكث حسن قليلا مع أخيها يتجاذبان أطراف الحديث ثم استأذن في الانصراف.

عاد ووجهه يتهلل بِشرًا وفرحا، لا يصدق ما رأته عيناه، وهو يقول في نفسه :

- فتاة على قدر كبير من الجمال، وفي ملامحها القبول، ويبدو أن أهلها على قدر من التدين والالتزام. وهل أبتغي أكثر من ذلك؟!

- إنها الراحة بعد المعاناة والنصب، الموطن والسكن، هي جنة الله في أرضه، هي زهرة عمري، هي هبة ربي.

استخار واستشار، ثم عقد العزم على تنفيذ ما ارتاح له قلبه.

- "وإذا عزمت فتوكل على الله"

وعلى الجانب الآخر أخبرت مَيَّان أبيها بالموافقة على الفارس المنتظر، فدعا حسن للحضور وأسرته لمزيد من التعارف، وقراءة الفاتحة.

اتفق الأهل على كل تفاصيل الزواج وترتيبات العرس، وكل شيء،

وبعد شهر أقاموا حفلًا رائعا لإعلان الخطوبة، كان بمثابة أجمل بداية لسعادة محتملة، تفاءل الجميع بفترة خطوبة رائعة تتوجها حياة سعيدة.

مرت الأيام، وكلما ذهب يوم زاد التفاهم بين حسن ومَيَّان؛ أخذا يتحدثان في كل تفاصيل حياتهما ويخططان لمستقبل جميل يجمعهما تحت راية الحب والعشرة الطيبة.

ودامت فترة الخطوبة ما يقارب العام، تَعَرَّفَ فيها كل منهما جيداً على الآخر؛ صفاته، وطباعه، واهتماماته، وآماله، وطموحاته، وما يُحب، وما يكره، وما يُسعده، وما يُحزنه، حتى أصبح كل منهما كتاباً مفتوحاً للآخر.

لم تشهد تلك الفترة خلافاً واحداً، حتى استهلَّا حياتهما بحفل زفاف شارك فيه جميع الأهل والأحباب والأخلاء والأتراب.

****

" ظهور رأس الشيطان "

ظن الزوجان –حسن ومَيَّان– أنهما في طريقهما إلى سعادة محققة، إلا أن سعادتهما لم تدم طويلا.

عشرة أيام وظهر رأس الشيطان؛

ظهر الأب بمظهر مُغاير تمامًا لما اعتاده حسن طوال فترة الخطوبة، فلطالما وجده الرجل الطيب التقي المحافظ على الصلاة في وقتها، حتى بدا أن هذا الوجه يُخفي وراءه ثعبانًا سامًا يتحين الفرصة لينفث سمومه ويحقق مآربه.

وفي أول زيارة لابنته أخذ يتمتم ببعض الكلمات:

- ما هذه السعادة التي أرى؟!

- لا بد أن أعكر صفوهم وأكدر عيشهم.

ثم التفت مُحدثا ابنته:

- مَيَّان يا ابنتي! كيف حالكِ؟ وكيف حسن؟

-- بخير يا أبي ... في غاية السعادة والسرور، وحسن زوج لا يُقدَّر بثمن، وهو كاسمه حسن.

- أَغَرَّكِ هذا الفتى؟! إنه يَخدَعُكِ بالمعسولِ من الكلام.

-- ماذا تقول يا أبي؟!

لا أجد منه غير ما أقول؛ زوج محب حنون ، لقد أحسنت الاختيار يا أبي.

- دعكِ من هذا الكلام واحفظي عني ما أقول:

يأتيني منكِ كل يوم تقرير؛ ماذا أكلتم؟ وما شربتم؟ وأين ذهبتم؟ ومن قابلتم؟ وكل شيء عنكِ وعن حسن.

-- أمرك يا أبي.

وعادت مَيَّان إلى حسن بوجه غير الذي ذهبت به، فتعجب من ذلك:

- ما بكِ يا مَيَان؟

-- لا شيء يا حسن.

- لِمَ تغير وجهكِ هكذا؟ أين البشاشة وأين البسمة وأين ترانيم الصباح؟

- قلت لك ... لا شيء يا حسن.

آثر حسن الصمت، مع اعتقاده الجازم أن هناك ما يعكر صفوها وتحاول أن تخفيه عنه، أو أنه قد فعل شيئا أغضبها عن غير عمد.

ومضى اليوم كئيبًا حتى حل المساء فتناولا وجبة العشاء صامتين، ثم قامت مَيَّان إلى الهاتف (يبدو أن هذا أول تقرير)، وقام حسن إلى حاسوبه محاولًا إخراج نفسه من هذه الحالة المزاجية السيئة بالقراءة أو القيام ببعض الأعمال.

وفي صبيحة اليوم التالي ظهرت بوادر الشقاق؛

تغيرت مَيَّان وتبدَّل أسلوبها في الحديث مع زوجها الذي سبق ووصفته بالحنون!

- صباح الخير يا حبيبتي.

-- صباح الخير

- ما بك يا مَيَّان؟ هل صدر مني ما يغضبكِ؟

-- .....

- مَيَان؟ ألا تسمعيني؟

-- ما بك أنت يا حسن؟ ولم تُكثر الأسئلة؟ دعني وشأني.

- أنسيتِ أن شأنكِ شأني؟

-- حسن ... لا تُضيق عليّ الخناق حتى لا يحدث ما لا تُحمد عقباه.

انزوى حسن وأخذ يناجي نفسه:

- لم تبدلت مَيَّان هكذا؟!

- أبهذه السرعة؟!

- ما سرُّ هذا التحوّل؟!

- نعم لم يكن ارتباطنا بطريق الحب، وتزوجنا بشكل تقليدي، ولكن ماذا تسمى فترة الخطوبة الوردية؟! أليس هذا بحب؟!

- لا ... هناك خطب ما.

- ما بك يا حسن؟ ما هذا الذي تقول؟! استعذ بالله من الشيطان الرجيم ودعك من هذه الوساوس.

فبالمودة والرحمة تصير الحياة جنة وتأتيك السعادة راغمة، لا تتعجل بحكمك على مَيَان؛ قد يكون هناك ما يضايقها ولا تريد البوح...

- ولكن لمن تبوح إن لم تتحدث إلى زوجها؟!

- يبدو أن هذه عين أصابتكما؛ قم توضأ وصلِّ ركعتين لعل الله يخرج من صدرك هذه الوساوس، وادع الله العلي القدير أن يصلح حالكما، ويذهب عنكما أعين الحاسدين.

****

شخص تُحاك ضده الحيل، ويكيدون له المكائد في طيِّ الخفاء، وعلى الجانب الآخر يكاد طبعه النقي يقتله!

ما أغرب القدر! وما أعجب البشر!

وهل سمعتم عن أب هكذا؟!

وماذا يسر الوالدين سوى راحة وسعادة أبنائهم؟

****

"بُشرى لم تكبح الأسى"

مضت أيام قلائل وتأكد الخبر السعيد ... نعم تحمل الزوجة في أحشائها جنينًا؛ إنه الطفل المُنتظر، حدث كفيل بإذابة الجليد وتوطيد العلاقة من جديد.

فرح حسن فرحًا جمًا، وانفرجت أساريره، وبالمثل شعرت ميَّان بالبهجة والسعادة، وأخذا يفكران في اسم الطفل المنتظر، وأخذ كل منهما يتمنى أن يرزقهما الله نسخة من الآخر.

- أريد طفلًا يشبهك يا حسن، طيب القلب وفيه كل حسن.

-- وأنا أتمنى طفلة مثلكِ، أدللها وتملك قلب أبيها.

- لا يا حسن، أريد طفلًا جميلًا يشبه أبيه؛ فالطفلة ستحبها أكثر مني وسأغار منها عليك.

-- أتغارين عليّ من ابنتكِ؟!

- نعم، وكيف لا أغار على مثلك يا حسن؟!

-- ما كل هذا الحب يا مَيَّان؟!

- ولم لا أحبك وأنا محظوظة بقربك، وسعيدة بحبك، وأحمل في أحشائي طفلًا منك؟!

-- وأنا محظوظ بحبكِ، وسعيد بقربكِ، لكِ مني كلُّ حبٍّ وإخلاص ووفاء.

- أتعاهدني يا حسن؟

-- عهد عليّ أن أظل أحبكِ وننسج بالحب قصة يرويها العشاق، ولم أكن يوماً لعهدي مُخلفاً.

وظلَّ الزوجان هكذا بضعة أيام حتى عاد، نعم هو ... رأس الشيطان!

ولكن –هذه المرة– هناك وجه جديد، الأخ الأكبر لميَّان، ويمكن وصفه بالذَنَب؛

شريك في التدبير والتخطيط، ولكنه يُظهر خلاف ما يُبطن.

ظهر الذَنَب في الصورة لأول مرة حين اشتد الخلاف بين حسن ومَيَّان فبادرت بالاتصال بأخيها الأكبر، والذي جاء بدور الناصح الحكيم.

ومع تكرار الخلاف ظهر الوجه الحقيقي للذَنَب حين اقتحم منزل أخته وزوجها في غيابهما، واستولى على المصوغات الذهبية وأشياءاً أخرى.

اكتشف حسن السرقة، وتيقن ووجد الدليل الدامغ والذي يفيد بأن صهره هو السارق!

فكر قليلا في اللجوء إلى الطرق القانونية لاسترداد ما سُرق من منزله أو لمجرد توثيق السرقة على أقل تقدير، ولكنه تراجع عملًا بالأصول وحرصًا منه على عدم تصعيد الأمور بينه وبين زوجته.

قرر التحلي بالصبر والأناة ومعالجة الأمر بالحكمة والهدوء.

وحين ذهب لإعادة زوجته -التي خرجت لزيارة أبيها في زيارة عادية فلم تعد بإذن أبيها! - قابلوه بالإساءة والإهانة -بدلًا من كرم الضيافة وحسن الاستقبال- وأخذوا يكيلون له السباب؛ فما كان منه إلا أن خرج حفاظًا على ما تبقى من كرامته.

وفور عودته إلى المنزل تلقى رسالة نصية من ميَّان تطمئن فيها على سلامة وصوله! أعقبتها باتصال هاتفي:

- اعلم يا حسن أني لست بمخيرة في هذا الأمر وليس لي يد ولا حيلة، إنما أجبرني أبي على ذلك وله عليّ حق الطاعة.

-- وزوجك يا مَيَّان، أليس له عليكِ حقوق؟

- لك بالطبع، ولكن حق أهلي عليّ أهم من حقوقك!

-- لن أخوض معكِ ذاك الجدال يا مَيَّان، ولكن لتعلمي أن طاعة المرأة لزوجها -في حدود الشرع وفي غير معصية الله- أساس قوة الحياة الزوجية واستمرارها، ومنبع السعادة

الأسرية، تجلب الهناء والرخاء، وتدفع الشحناء والبغضاء؛ فطاعة الزوج -بعد طاعة الخالق- مفتاح الجنة.

- ...

-- أو تظنين أن في ذلك انتقاص لكرامة المرأة وإنسانيتها؟!

لا والله، فكرامتكِ مُصانة، ومشاعركِ محفوظة، وكيانكِ راسخ، ورأيكِ مُقدَّر،

لا أنكر حقوق أهلكِ عليكِ، ألا تذكرين أني من كان يدفعكِ لبرهم-منذ بداية خطوبتنا- وكم عنَّفتكِ على تقصيركِ في حقوقهم؟

ولكن لا يلزمكِ طاعة أبويكِ في فراق زوجكِ، فطاعة الزوجة لزوجها مقدمة على طاعة الوالدين والإخوة، ما دام هذا الزوج يتقي الله فيها ويؤدي حقوقها عليه.

والزوجة العاقلة هي من تطيع زوجها، وتستجيب لآرائه ونصحه برغبة وإخلاص، فإن رأت فيه ما هو خطأ في نظرها، تبادلت معه وجوه الرأي، وأرشدته إلى موضع الخطأ برفق ولين؛ فالهدوء والعبارة اللينة يفعلان فعل السحر في النفوس.

ليست طاعة عمياء يا مَيَّان، ولا هي طاعة مطلقة لا حدود لها، فهذا الحق مُقيَّد بالمعروف، وهي طاعة قائمة على التشاور والتفاهم، والزوجة المخلصة مستشارة لزوجها، تعينه وتهديه بعواطفها، وتزود عنه بغريزتها، وتغذيه برأيها الثاقب.

- أو تعرف يا حسن؟

-- ماذا؟

- أكثر ما يُسعدني هذه المرة أننا لسنا مُتخاصِمَين، وها أنا ذا في بيت أبي وأنت بعيد عني ونتحدث في الهاتف كما كنا نفعل في فترة الخطوبة.

-- ولكنك الآن زوجتي يا مَيَّان، وهذا الوضع أشبه بالاحتجاز!

كيف يكون كل منا بمنأى عن الآخر وليس بيننا خلاف غير أن أباكِ أراد أن يفرض رأيه عليّ ويحبسكِ عني؟!

- سينتهي كل هذا يا حسن، و سأعود إليك حتماً.

-- ومتى ينتهي هذا الوضع الغريب يا مَيَّان؟

- لا أعلم.

-- وما يمنعك أن تعودي إلى بيتكِ وزوجكِ؟!

- أخاف أبي ولا أريد أن أعصي له أمراً، تحدث أنت إليه لعلّه يستجيب ويوافق على أن أعود إليك.

-- قد جئته فسبني وأهانني، بينما وقفتِ موقف المتفرج ولم تحركي ساكناً، وكأن إهانة زوجكِ الذي تحملين طفله ليست تقليلاً من شأنكِ!

- وماذا عساي أفعل؟ وماذا حدث لكل هذا؟!

-- لا شيء يا مَيَّان، لا شيء.

****

"أضحى كابوسًا !"

مرت أربعة أيام أشبه بالهدنة بين الطرفين، ثم قرر حسن مناقشة مَيَّان في أمر المصوغات الذهبية التي اكتشف اختفاءها، فأنكرت في البداية ثم أقرَّت أنها هي من أخذتها بنفسها.

صمت حسن ولم ينبس ببنت شفة، مع يقينه بأن أخاها هو من سرقها، ولكن يكفيه اعترافها بأن الذهب قد انتقل من منزله إلى منزلهم، تحسباً لما سيأتي.

شهدت هذه الفترة شدًا وجذبًا بين الطرفين، تنوعت أساليبهم بين الترهيب والترغيب، وحسن ثابت على موقفه، يأبى أن يتدخل أحداً في شئونه الخاصة، رافضًا أن يكون لأحد سلطان عليه وعلى أهل بيته.

واعترف شقيقها لاحقًا في إحدى المحادثات الهاتفية بسرقة المصوغات الذهبية:

- نعم أخذتها، دخلت منزل أختي وأخذت مصوغاتها، ما المانع من ذلك؟

-- لا مانع من دخول منزل أختك في وجودها وفي الظروف العادية، أما في مثل هذه الظروف -ونحن على خلاف وأختك في بيت أبيها-، لا يحق لك دخول منزلي في غيابي وسرقة شيء يُعد أمانة لدي، حسب القانون وطبقاً لما هو مدون بقائمة المنقولات الزوجية.

- أنا أخذتها، لا تقل سرقتها.

-- لا تفرق كثيراً، وما شأنك بذلك؟

- منزل أختي أدخله متى شئت، لا شأن لك أنت بذلك!

-- لا أعرف ماذا أقول!

- سَمِّه ما شئت.

ازدادت الأمور سوءاً وبدأت تخرج عن نصابها الطبيعي، وساءت أكثر بعد أن أخذت مَيَّان تتهم حسن بما ليس فيه، وتذكره بأسوأ الصفات، تلبية لرغبة أبيها، وتنفيذًا لأوامره وتعليماته الصارمة!

ليس بمستغرب أن يسعى أب كهذا لتدمير حياة ابنته وهدم أسرتها الصغيرة وتشتيتها! ليس بمستغرب على رجل يقسم أغلظ الأيمان من أجل غنيمة يغنمها، يضمر الشر ولا يدخر جهداً في إلحاق الضرر بالناس.

كثر الحديث عن تأزم العلاقة بينه وبين أبناء أخيه المتوفى، بسبب جوره عليهم، وأكل حقوقهم، ومحاولة الإيقاع بينهم -في مرحلة من المراحل- عملاً بسياسة "فرق تسد"، ولكن ترابطهم كان أقوى من ألاعيبه وأساليبه الشيطانية.

ولم يقتصر هذا الأمر على أبناء أخيه فحسب، بل امتد أيضا إلى غيرهم من جيرانه وأقاربه الذين لم يسلموا من ظلمه واعتدائه،

لم يصدق حسن ما يحدث! كيف لم يتبين له ذلك على مدار عام كامل هو مدة الخطوبة؟ ولِمَ لَمْ يكتشف حقيقة أولئك البشر قبل فوات الأوان؟ كيف يتحول الحلم إلى كابوس مزعج؟

أطرق هنيه، ثم طفق يحدث نفسه:

- ما هذا الذي يجري يا حسن؟!

- من هؤلاء البشر؟!

- أهذه مَيَّان التي عاهدتك على الحب والوفاء؟!

- أين الصدق؟ وأين الحب؟ وأين الوفاء؟!

- لقد تبدل الصدق كذبًا، والوفاء غدرًا!

- ما أنت إلا غبي ساذج سهل الخداع يا حسن!

وكانت هذه بداية النهاية...

تبدلت مَيَّان، أو لنَقُل ظهر وجهها الحقيقي، وتأكد هذا أكثر فأكثر حين حدث ما لم يتوقعه حسن، فمَيَّان الآن تقاضيه وتسعى بكل ما أوتيت من حِيَّلٍ لإيذائه!

- ما هذا؟!

- أوصل بك الأمر لهذا يا ميَّان؟!

- نقضتِ العهد وأخلفتِ الوعد؟!

- في هذا التوقيت؟! ونحن على مشارف استقبال مولودنا الأول؟!

****

"لا مفر من الرحيل"

لم يمض أكثر من شهرين على تلك الأحداث حتى جاء إلى الدنيا مالك، ثمرة حبٍّ تبخر وأضحى أكذوبة.

لم يستطع حسن أن يشهد ولادة طفله الأول؛ فقد أخفت عنه مَيَّان موعد الولادة حتى دخلت المستشفى فاضطروا أن يخبروه حتى يحضر لدفع مصاريف وتكاليف الولادة، إلا أنه لم يتمكن من الحضور في ذلك اليوم نظراً لسفره لزيارة صديقه الذي تعرض لحادث، ولم يكن الوقت ليسعفه؛ كيف يتمكن من اللحاق ومَيَّان في غرفة العمليات، في حين يستغرق الطريق ثلاث ساعات على الأقل؟!

حاول بعض المُقرّبين -من الجانبين- تقريب وجهات النظر بين الطرفين من أجل لَمِّ شمل الأسرة الصغيرة، حتى ينشأ الطفل في كنف أبويه، في أسرة متماسكة ومستقرة.

رضخ حسن للأمر وحاول أن يتناسى ما أصابه من مَيَّان وأهلها، إكرامًا لوليده وقرة عينه "مالك"، وقدم بعض التنازلات -التي لم يكن ليقبلها يومًا- وذلك في سبيل المحافظة على استقرار أسرته الصغيرة، وضمان حياة أفضل لطفله حديث العهد بالدنيا.

ومع ما قدمه حسن من تنازلات، قابله والد مَيَّان بالرفض والتشدد، ماضيًا في سبيله للتفريق بين الزوجين!

كل هذا ومَيَّان لا حول لها ولا قوة، أينما وجهها أبوها سارت! لم تعد تحفل بحسن، ولم تكترث بمصير الطفل البريء، ولا بحرمانه من أبيه.

وفيم العجب؟! ومتى كان السالبُ واهبًا؟!

كان حسن قد تلقى أكثر من عرض للعمل ببعض دول الخليج العربي، ولكنه -مع كل ما قُدم له من إغراءات مادية- كان دائماً ما يرفض، فلم يكن يوماً متحمساً للسفر من أجل

كسب المال فحسب، فكم تمنى أن يسافر! ولكن ليستزيد من العلم ويحقق ذاته، غير أنه لم يزل محتفظًا ببصيص من الأمل في استعادة حياته، ولم يشأ أن يفارق طفله الذي لم يره!

ولما اشتد به الإيذاء ولم يتمكن من رؤية وليده "مالك القلب"، قرر مفارقة الديار؛ حيث حبيبًا أضحى مُخادعًا ووليدًا حُجِب عن ناظر أبيه.

وافق على عرض للعمل بدولة البحرين، أتم إجراءات السفر ورحل على الفور، يَحمِلُ الأسى ويُنشِدُ الكلمات:

خَرَجْتُ حاملاً حُلماً مريراً

خَرَجْتُ مُفارقاً دِياري وقَومي

وَقَفْتُ ببابِ الغربةِ راجياً

تحقيق آمالي وتفريج همي

في مشهدٍ محفورٍ لدى كلِ مغترِبِ

صرخات ابن (١) ودموع أم ودعتني

****

(1) هنا يتخيل حسن صرخات ابنه الذي لم يره وكأنه يحس به ويسمع صراخه.

" إنها الغربة يا للمغترب ! "

وهبطت طائرة الأحلام على صخرة الأوهام، فلمح حسن وجوهاً وأعيناً منها الحزن يفيض، يراها إليه ناظرة، وعن أسباب قدومه سائلة.

ومضت أول ليالي الغربة وكأنها سنين، جحوظ عينين ودموع تسيل، ما بين فراق وتفكير في مصير، ثم انفرطت أيام الغربة كما ينفرط العقد الثمين، فتحت له الغربة ذراعيها فارتمى بين أحضانها.

والتقى حسن صنوفًا من البشر؛ ما بين محب وحاقد، وناصح وفاضح،

ومنهم من يقول أبي وأمي وإن فتشت عنه ما وجدته،

ومن يتباهى بالخبرة وما دونه أقزام، يتحدث كأنه العالم ولا عالم سواه، وإن جادلت لوجدته المُجادِل والمُجادَل، يحقر من هذا ويسخر من ذاك وهو الأرذل.

وآخر مُتملق، صاعد على أكتاف أقرانه، يحيك المؤامرات وبالجاسوس يُعرف.

وأخ لم تلده أمك، وعند الضيق تجده بقربك.

إنها الغربة يا للمغترب! بل قل هي الدنيا لا تخلو من النَصَب.

****

ومضى حسن في عمله، تجيء أيام وتذهب أخرى دون جديد أو حدث سعيد.

ولما ضاقت به السُبُل وأحسَّ بالضيق الشديد، شرد بذهنه بعيدًا وأخذه الحنين إلى أيام طفولته، والتي وصفها بأيام البراءة الأولى:

- كم أشتاق إلى أيام البراءة الأولى!

كنت لا أحمل هماً، ولا يضيق صدري بشيء، حتى جُرح الجسد كان ألمه وقتي ثم لا يلبث أن يزول، وكانت الفرحة حقيقية، والسعادة نابعة من القلب.

كبرنا وكبرت همومنا وضاقت بها الصدور، وأصبحت جراح القلب قاتلة وعبرات الحزن مدمرة، ولكن يبقى الأمل ما بقيت الروح، يبقى الأمل ما بقي النبض في العروق، يبقى الأمل ما دام هناك غروب وشروق.

****

" بزوغ أمل جديد "

استيقظ حسن على خبر ينتظره منذ سنوات، اقترب الحلم من التحقق، حلم الهجرة أو السفر إلى كندا.

حصل على عرض عمل من إحدى شركات البترول في كندا بِناءاً على توصية من "د. إبراهيم" -أستاذه السابق بكلية العلوم- والذي تنبأ له بمستقبل باهر، ولطالما شجعه على استمرار التعلم والغوص في بحور العلم والبحث العلمي.

كان "د. إبراهيم" حريصاً على التواصل مع حسن بعد تخرجه، أما حسن فلم يكن يخطو خطوة في مشواره المهني أو العلمي قبل الاستماع إلى رأي ونصيحة أستاذه الذي كان يحفزه دائماً ويطمئنه بأن الفرصة آتية لا محالة.

سافر حسن وبدأ مرحلة جديدة من حياته، تاركاً ما قد مضى، اندمج سريعاً في البيئة الجديدة، ولما استقامت له الأمور، عاد إلى أبحاثه وتجاربه؛ ما إن ينتهي من عمله حتى يهرع إلى معمله، بهمة لا تفتر، وعزيمة لا تلين، وشعلة من الطموح لا تخبو.

ومع حبه للعلم وشغفه بالبحث والاكتشاف، لم ينس غذاء الروح؛ فقد كان دائم التردد على منتديات الثقافة والفكر والأدب.

وفي إحدى الأمسيات الأدبية التقى فتاةً أندلسية الجمال تُدعى (لَمَار)، كالوردة البيضاء، ذات وجه سني، ومقلة حوراء، تفوقُ البدر في حُسنها، متوقدة الذهن، متوهجة الفكر.

وما إن وقع بصره عليها حتى أخذت بمجامع قلبه وسكنت روحه، وكأن شُعاعاً قد انبعث من عينيها فنفذ إلى دواخله، وأصاب منه القَلبَ واللُبَّ.

لاحظت "لمار" بريق الانبهار في عيني "حسن" وقد ثبت نظره عليها، فأطرقت حياءاً، ثم تحولت بوجهها عنه.

وفي نهاية الأمسية لم يفوت حسن الفرصة، وذهب إليها:

- اسمي حسن، مهندس كيميائي، مصري.

-- وأنا لمار، أدرس التصميم، مصرية أيضاً.

- "لمار"! يا له من اسم جميل!

-- لماذا كنت تطيل النظر إليّ؟

- وهل يُسألُ الليلُ عن سحرِ القمر؟!

تورَّدت وجنتاها وتلعثمت خجلاً، وهمت بالانصراف فحَوَّل حسن دفة الحديث إلى موضوع الندوة وما دار بالملتقى من أحاديث، خوفاً من أن تضيق بكلامه وتنصرف.

دار بينهما حديثٌ لم يزد في مدته عن بضع دقائق، ثم انصرف كل منهما إلى منزله.

أُعجب حسن بفكرها اللامع وعقلها المستنير، ولاحظ براعتها وحسن بيانها، كأنها الكوكب الساطع، رقيقة، شجية، جميلة، ذكية، بدت على وجهه علامات الإعجاب والانجذاب، وبدأ يحس بأن كيانه قد تغير وأن هناك قوة ما تدفعه باتجاه "لمار".

ومع تعدد الندوات واللقاءات ازداد فوق الإعجاب إعجاباً، فقرباً، فحبًّا، فاشتياقاً، وبدأت لمار تبادله الشعور؛ انشغال الفكر، وخفقة القلب، ولهفة في اللقاء، ولوعة في الرحيل.

ونتيجة لهذا الانجذاب الشديد أخذت دقات قلبه في التسارع كدليل على اتحاد دقات قلبه مع دقات قلب محبوبته.

وبين عشية وضحاها شغلت لَمَار فكره وقلبه فيما يبدو أنهما قد اتحدا بالقلب والوجدان، بينما أضحت تجربة زواجه الأولى من مَيَّان ذكرى أليمة تجرع فيها مرارة الغدر والنكران،وأخيراً وبعد طول المعاناة وجد المحبُ رفيقًا لروحه، يأنس بقربه، ويشقى لفراقه.

****

إن أظهرت لنا الحياة وجهاً قبيحاً في مرحلة ما، فلنبحث عن وجهها الجميل وسنجد للحياة وجوهاً رائعةً ومعانٍ أكثر روعة.

من قال بأن الحياة لا معنى لها؟!

من قال إن وجودنا بالدنيا فقط لتمرير أوقاتنا؟!

من قال إن الحياة تتوقف عند تلقي الصدمات؟!

من قال إن الأمل لا يولد من رحم المعاناة، وإن كل ألم لا يمحوه الأمل؟!

للحياة ألف معنى ومعنى ولكننا لا نبحث عن المعنى.

الحياة في سجدة في خشوع بين يدي رب العالمين.

الحياة في آية نتلوها ونتدبر معانيها.

الحياة في حضن أم حنون، في وجود أب عظيم، في أخوة صادقة.

الحياة في لحظات سعادة نقضيها مع حبيب يهواه قلبنا.

خلاص الإنسان في الحب وبالحب؛ حب الله ورسوله، حب أناس تعلقت بهم قلوبنا، حب الجمال، حب الخير، حب الحياة.

للحياة ألف معنى ومعنى ولا تتوقف عند تلقي الصدمات، تماماً كما قال حسن في مناجاته لحبيبته:

- أيا من استوطنت روحي وسكنت وجداني!

معاً نقهر الألم، ويحدونا الأمل لمستقبل جميل ومشرق يجمعنا بعيداً عن شرور البشر، على طاعة الله ورسوله نجتمع.

****

"حب ينمو وارتباط وشيك"

كان الاحترام المتبادل والتفاهم يسودان العلاقة بين الطرفين، ومع إعجاب كل منهما بالآخر وقربه منه -يوماً بعد يوم- إلا أنهما لم يخرجا عن المألوف.

كان حسن حريصاً أشد الحرص على المحافظة على نقاء المشاعر بينهما وصفائها، وكان أكثر ما يجذبه نحوها عقلها المستنير وحياؤها الفطري الذي يزيدها فوق الجمالِ أضعافًا مُضاعفةً من الحُسنِ والبَهاء.

ومع تأكد الحب بينهما واتفاقهما في أغلب الأمور، أخذ هذا الحب ينمو أكثر فأكثر حتى قررا الارتباط الرسمي كتتويج لعلاقة حب رائعة، فمن روعة الأرزاق أن يهديك اللهُ أُناساً كالورد، يُدفئون الأرواحَ ويُشعلون البهجةَ في القلوب، ويصرف عنك من كانوا سبباً في الكروب.

ما أحلى الحياة وما أسعد لحظاتها حين تجد روحاً تَستقرُ إليها روحك وتسكن!

- لمار؟

-- نعم

- حُلم أنتِ أم حقيقة؟

-- ...

- كم عانيتُ قبلكِ ! ... فقدت بسمتي وغابت عني الفرحة، حتى وجدتكِ، فوجدت نفسي، ودَبَّت فيّ الروح من جديد، لم أسعد بحياتي كسعادتي مذ دخلتِ حياتي، ولكن الخوف ما زال يسيطر على خلجات صدري وجنبات روحي.

-- الخوف من ماذا؟

- لم تكتمل لي فرحة ولم تدم لي سعادة، عودتني الدنيا أن أخاف حين أفرح، بل صرت أخاف أن أفرح، أخاف أن أفقدكِ، أخاف أن يتبخر الحلم يوماً.

-- كل إنسان مسئول عن سعادته يا حسن، لا تجزع من همّ أو مصيبة، وأقدارنا بيد الرحمن مكتوبة، عش كل يوم بأمل جديد، وتيقن بأن الله ما أحزنك إلا ليُسعدك، وما حرمك إلا ليتفضل عليك، وأن كلَّ مُرٍ سَيَمُرُ بإذن الله.

- بإذن الله.

-- وكفى بالله وليًّاً، وكفى بالله نصيراً.

- ونعم بالله ... أتعرفين يا لمار؟

-- ماذا يا حسن؟

- كل يوم أكتشف فيكِ شيئاً جديداً، شيء مميز يجعلني أتمسك بكِ أكثر، وأدعو الله مخلصاً:

(اللهم كما قدرت لي أن ألتقيها، احفظها لي ولا تُريني فيها بَأساً يُبكيني).

وأَخذَ يُنْشِدُ في حبها شعراً:

راقت لي عيناها

وأبهرني حُسنها البراق

اقتحمت حصونَ الروح

وامتلكت ذلك القلب الخفاق

حررت طائر الشجن

وأبدلت أحزانه إشراق

ليست بقمر

بل تمسك القمر بين يديها

تخشاها النجوم

والشمس منها تغار

****

حســـن ولمـــار...

يعيشان الآن أسعد الأيام ويقضيان أفضل اللحظات...

ولم لا وقد وجد كل منهما ضالته في الآخر!

فحسن وجد الإنسانة التي لطالما تمنى أن تشاركه حياته، وتكون منه كالروح للجسد، الموطن والسكن، الزوجة المحبة المخلصة ذات الدين والخُلق.

ولمار حظيت برجل تتمناه كل النساء، مُحب حَنُون جُبِلَ على الوفاء، فارس من معدن نفيس يُدخلها إلى عالمه الخاص، زوج تجد بين راحتيه الأمان، وفي كنفه الراحة والاطمئنان، يأخذ بيدها إلى مرضاة الله ثم إلى أعلى الجنان.

وها هما الآن يستعدان لدخول العش الذهبي...

- ما رأيك -يا حسن- بعش صغير يجمعنا ولو كوخ من خشب؟

مكان يجمعنا سيغدو جنة، وإن كان صغيراً، بالحب سيتسع.

-- ما رأيكِ أنتِ بجزيرة في وسط البحر حيث لا بشر أو صخب؟

- بل جزيرة الحب جزيرتنا؛ جزيرة كل مُحبٍّ ومحبوبه، حيث النسيم العليل، وعصافير السعادة ترفرف في سماء حبنا.

-- دُمتِ لي جوهرة ألماس ثمينة، وزجاجة عطر يفوحُ منها العبيرُ.

- دُمتَ لي جنتي ونسيمي يا تاجَ الرجال، لقد اخترتك لي وطناً؛ فمن نحب ونهوى هم كالوطن، دمتَ لي يا حبيبي جنتي ومهجتي.

-- أتعرفين ثلاثةً مُتتالية؟

- أي ثلاثة يا حسن؟

-- ثلاثة أرقام متتالية، لا غنى للأول عن تاليه، وحين يجتمعا يعرفا تاليهما (١)

٣ : ح س ن

٤ : ل م ا ر

٥ : س ع ا د ة

٧ : ا ل س ع ا د ة

احمر وجهها خجلا، مع ابتسامة صافية كسماء الصيف.

ما أجملهما من حبيبين!

وهنا ظهرت صديقتها (وفاء):

- لقد تأخر الوقت يا لمار، هيا بنا؟

ثم انتبهت لوجود حسن.

- كيف حالك يا حسن؟

-- بخير والحمد لله.

- أتعرف أني أحسدكما، وأتمنى لو يُسطر الحب بينكما في كتاب يقرأه كل مُحب، فيعرف كيف يكون الحب الصحيح، الحب النقي العفيف.

-- أحمد الله أن رزقني حبها، وأتضرع إليه أن يتم فضله عليّ وأن يبارك زواجنا وأن يختم لنا ولكِ بخاتمة السعادة.

- آمين يا رب !

أعتذر منك يا حسن، لقد تأخر الوقت وعلينا الذهاب.

---

(١) ٣+٤=٧ = عدد أحرف الكلمة المقصودة بالرقم ٥ مُعَرَّفَة (ا ل س ع ا د ة)

-- تفضلا، في حفظ الله ورعايته.

- لنمضِ يا لمار؟

--- وداعاً يا حسن، هيا يا وفاء!

-- إلى اللقاء يا لمار.

****

" خَفَتَ وهج النور "

انصرفت لمار بصحبة وفاء، وعاد حسن إلى منزله منتظراً مكالمتها ليطمئن على سلامة وصولها.

كان آخر ما يسمعه قبل نومه صوت لمار، وآخر ما يقرأه كلماتها ورسائلها، ومن ثم يستيقظ على رسالتها المعتادة (صباح الخير يا أحلى حسن).

أمضى حسن ليلته كطائر مُحَلِّق في السماء، ولا يدري أن لمار -على الجانب الآخر- تقضي تلك الليلة في أرق.

استيقظ وأمسك بهاتفه المحمول بحثاً عن رسالة لمار، فيبدأ يومه بانشراح الصدر، وابتسامة تعلو وجهه مهما كان في يومه من ضجر، وكأنها حصن وتطعيم ضد أي كدر.

ولكن هذه المرة تغير وجهه وبدا عليه الوجم!

كلمات مقتضبة من قرينة الفؤاد ورفيقة الروح، نصها ما يلي:

((حسن ... أقسم بخالقي أني قضيت معك أياماً لا أحصي من عمري إلاها، ولكن بالحياة ما هو أقوى من الحب مهما كان الأمل، ارتباطنا لن يكتمل، بربك لا تبحث عني ففؤادي لم يعد يحتمل)).

أمسك بهاتفه محاولاً الاتصال بها ليجد هاتفها مغلقاً، حاول الوصول إليها عبر وسائل التواصل الاجتماعي ولكن دون جدوى.

فكر في الاتصال بصديقتها (وفاء)، والتي أخبرته بأنها لا تعرف شيئا عما يقول، يبدو أن لمار أغلقت هاتفها في وجه الجميع.

واختتمت المكالمة بكلمات توقف حسن عندها قليلاً:

(لا تظلمها يا حسن، فكلاكما ضحية الظروف والمجتمع، آهٍ لو كان الزمان غير الزمان والمكان غير المكان!)

****

مرت على حسن ساعات من الحيرة والصدمة والغضب، ثم فكر في الذهاب إلى منزل لمار الكائن بمدينة "هاليفاكس" (Halifax) التي تبعد حوالي ثلاث ساعات عن مدينته، "يارموث" (Yarmouth).

قرر مواجهتها ليسمع منها ويفهم ما تخفيه، ولم ضربت بحبهما عرض الحائط هكذا.

ارتدى ملابسه وهَمَّ بالخروج ... وهو يتصفح رسائل (الإيميل) وجد رسالة من لمار:

- أخبرتك ألا تبحث عني فلم تنفذ رغبتي؛ لذا سأخبرك ما جرى.

((تقدم لخطبتي شاب، قد لا أكون أحبه ولكني سأتزوجه، وأُخبرك أني لن أحادثك بعد اليوم، فبعد ارتباطي لم تعد ثمة صفة للحديث بيننا)).

تلقى حسن هذه الكلمات كصاعقة زلزلت أركان روحه وكادت أن تذهب بعقله، متمتماً بكلماتٍ في داخل نفسه:

- ماذا جرى؟!

- أكان هذا حُلما؟

فرك عينيه وأعاد قراءة الرسالة، ثم تابع:

- أحقا هذا يا لمار؟

- تُزَفين إلى غيري؟!

- أَصَدَّقْتِ كلامي حين قلت لكِ: "لم تكتمل لي فرحة"؟

وأخذ يسترجع ما كان بينهما من وعود وأحاديث جميلة، حتى توقف عند آخر كلمات ألقتها على مسامعه قبل انصرافها مع صديقتها "وداعاً يا حسن"!

- أكنت تقصدين ذاك الوداع؟!

- أم أن القدر جعل آخر ما بيننا "وداعاً"؟

تماسك قليلاً، ثم أجاب على رسالتها:

((تلك هي الحالة التي لا أملك فيها قولاً ولا رداً، اسعدي يا لمار، وإن كانت سعادتكِ مع غيري، أتمناها لكِ، عيشي واسعدي!))

ثم اختتم رسالته بعبارة للشاعر الكبير فاروق جويدة:

"فالآن يرحل عن ربوعك فارس مغلوب."

****

بكلمات ملؤها الأسى وصوت يملأه الشجن ودع حسن حبيبته لمار، قرينة الفؤاد كما أسماها، لقد كانت منه الروح وشفاء الجروح.

يا لهذا المسكين ينتقل من فاجعة لأخرى، ولا يدوم فرحه طويلاً!

أجل، سنة الحياة؛ فرح فحزن فسرور يتبعه حزن ففرح ... وهكذا.

وهنا يكمن الألم؛ فمن لم يذق طعم الفرح لا يعرف معنى الألم، والعكس صحيح.

وحينما تحل السعادة ويأتي الفرح(١) بعد طول المعاناة(٢)، يكون الفقد بعده أشد إيلاماً والحزن في أقسى صوره.

---

(١) يقصد بالفرح ظهور لمار في حياة حسن.

(٢) معاناة حسن مع ميَّان، زوجته الأولى.

" حنين وإنشاد حزين "

يبدو أن تأثر حسن برحيل لمار أقوى من قدرته على النسيان، وأن معاناته سيطول مداها، وستبقى ذكراها.

مناجاة بعد مناجاة ولم يجف دمع قلبه...

- لطالما كنت أردد: "ما زلتُ على العهد"، ولكن بعد أن عُدنا غرباء ما عاد بيننا عهد؛ ومن اليوم أنتِ منه في حِلٍّ.

وما إن يهدأ حتى يعاوده الحنين.

- أيا حبيباً فارقني دون أن يودعني!

أحببتكِ حُبَّاً تعجزُ عن وصفهِ الكلمات، وتذوبُ من صِدقِهِ العبارات،

وتركتِنِي أسيراً لذكرى لا تُنسى، وبددتِ حُلماً لم يكتمل،

هلا ودعتِنِي وأَعَدتِ القَلبَ وأخذتِ الذِكرى معكِ؟!

عُذراً، إنها القلوب؛ ليس لنا سُلطان عليها.

وظل حسن على هذه الحال أياماً، فَقَدَ خلالها متعة الحياة، وصار كل شيء في فمه مُراً كالعلقم.

أمبالغة منك يا حسن؟ أم أن عمق الحب والوفاء صار أمراً عجيباً؟!

تبدلت المعايير وتغيرت المفاهيم؟! أم أنك أصبحت عن هذه الدنيا غريباً؟

بصوت مبحوح عاد حسن إلى إنشاده الحزين، في محاولة منه للتعبيرعما أصابه وعن تقلب حاله:

أَبحَثُ عَن ذاتي ... بَينَ أَوراقي وكَلِماتي

أمسِكُ بدَفاتِري ... وأُقَلِّبُ الصفحاتِ

فقد سَجَّلت دَفاتِري ... مِنِّي حَياتي

بَينَ ثَنَايَاها أُنسي ... وحُزني وآهَاتي

أحلامي المُبَعثَرة ... وكأنها رُفاتي

فقلت أُلَملِمُهَا ... وأُعِيدُ رَسمَ حَياتي

أَشرَقَت شَمسُ الصَباح

داعبت وَجهي وقالت

قُم وانشُد لحناً جميلاً

قُم تَفْرَح فرحاً طويلاً

فَهَتَفَت رُوحي وطارَت

وصارَ حُلماً كبيراً

ثُمَّ عَلى حِين غِرَّة ...

خَفَتَ وَهْجُ النور

قد حان وَقتُ الغُروب

فتَوارَى صَوتي بَعيداً

وقد كان قوياً عَنيداً

وعادَ لَحْني حَزِيناً

وأَضْحَى حُلْمي خَيالاً

وعُدْتُ أَبْحَثُ عَن ذاتي

وأَمضغُ في الصَمْتِ بَعضَ الكَلِماتِ

" تفكير في العودة "

حاول حسن أن يتعايش مع الوضع الجديد بعد اختفاء لمار المفاجئ، وبعد بضعة أشهر، بعد وقت من الأخذ والرد، بدأ التفكير ملياً في العودة إلى مَيَّان!

بعد كل ما حدث؟!

ولِم لا، وبينهما عامل مشترك يستحق المحاولة والتضحية مرة أخرى والصبر على الأذى!

ولِمَ لَم يتذكر حسن تلك التضحية المزعومة إلا بعد رحيل لمار؟!

من قال كذلك؟! لقد كان حسن حريصاً أشد الحرص وتحمل ما لا يمكن تحمله من أجل ابنه، حتى مع ما عانى ولاقى من إساءات، وطرق لكل الأبواب، ولم يستسلم للرحيل إلا بعد أن أُغلقت جميعها في وجهه.

عاش جسداً بلا روح، وها هو الآن يفكر في العودة إلى تلك الحياة البائسة، قرر أن يتناسى ما حدث ويطوي صفحة الماضي الأليم، قراراً ليس بالهَيِّن، ولكن حسن يملك من الشجاعة والقوة ما يُمكنه من مواجهة الواقع، ومعالجة ما استعصى عليه من قبل في شخصية مَيَّان ونمط حياتها.

لم ينسَ كذبها المعتاد؛ ذلك الداء العضال، لم ينسَ أنها سليطة اللسان، لم ينسَ رأس الشيطان، ولكنه -أيضاً- لم ينس ذلك الملاك المسكين (مالك)، كما وإنه يحسن الظن بأن الأيام قد غيرتها -كما يُقال- وأنها ستكون أكثر حرصا من ذي قبل على بيتها وزوجها؛ فقد وعت الدرس جيداً.

بعد يومين من وصوله مصر -في إجازة قصيرة- ومع توافد الأهل والأصدقاء للترحيب بعودته إلى أرض الوطن، لم يكن لهم من حديث سوى موضوع عودته إلى مَيَّان، إلا

سلمى (ابنة عمه)، تتجنب الحديث في هذا الأمر بحكم أنها كانت السبب في معرفته بمَيَّان من البداية.

كان آخر عهد حسن بمَيَّان يوم أن خرج طريداً محروماً من فلذة كبده وثمرة فؤاده.

ترى أستكرر التجربة؟ أستكون العودة صعبة؟

قد يكون الأمر كذلك، ولكن حسن دائماً ما يُقدِم ولا يخشى المواجهة؛ فهذا ديدنه.

لما علمت مَيَّان بعودة حسن ورغبته في إعادة ترميم العلاقة ولم الشمل مرة أخرى، تظاهرت -في بادئ الأمر- بالقوة وأنها لا تبالي بالعودة إلى حسن، ولكن الحقيقة لم تكن كذلك.

لقد عانَت مَيَّان الأمرين -بحسب قول إحدى قريباتها- خلال العام المنصرم؛ من القيل والقال وتناثر الأقوال في بلدتها حول السبب الحقيقي لانفصالها عن حسن، وحقيقة سرقة أخيها مسكن زوج أخته، ثم ذهابه بعد ذلك بصحبة مجموعة من البلطجية في محاولة لإيذاء حسن، ولكن إرادة الله حالت بينهم وبينه.

كما كثرت الأحاديث عن سطوة أبيها ورغبته الجامحة في السيطرة التامة على ابنته وزوجها، والتكسب منهما بشتى الطرق الممكنة، حتى أنه طلب مرة من حسن تقريراً عن تفاصيل دخله المادي! وكان ذلك بعد أقل من شهر من زواجهما، وأشياءاً أخرى لطالما تغاضى عنها حسن.

لم يكن حسن ليقبل أن تعود إليه ميَّان مجبرة تحت ضغط الظروف وللتخلص من القيل والقال، لم يكن ليقبل بذلك في أي حال من الأحوال، بل كان أكثر ما شجعه على اتخاذ هذا القرار ما نما إلى مسامعه من شعور مَيَّان بالندم الشديد واعتذارها غير المباشر عما فعلته به، ورغبتها الحقيقية في طيِّ صفحة الماضي وبدء حياة جديدة مبنية على التفاهم وحسن العشرة.

ولكن قبل أن يتخذ قراراً كهذا، كان لا بد من التأكد من حقيقة ما يسمعه عن مَيَّان وموقفها من العودة إليه، ولا يثق في غير سلمى في هذا الموضوع على وجه الخصوص.

- منذ وصولي والجميع يحدثني في موضوع واحد إلا أنتِ يا سلمى!

-- طبيعي يا حسن، فلن تطيق كلامي أنا تحديداً، ولا ألومك في ذلك.

- وما ذنبكِ فيما حدث؟! كل شيء بقدر الله وحكمته... ماذا تعرفين عن مَيَّان يا سلمى؟ وكيف حالها الآن؟

-- سأخبرك ما أعرفه، ويبقى القرار قرارك.

ما سأقوله يختلف عن أي كلام سمعته، اعتبره رسالة من صاحبة الشأن نفسها:

((لقد تغيَّرت مَيَّان بالفعل يا حسن، عانَت كثيراً مثلما عانَيت، وتألَّمَت كما تألَّمْت، وها قد اعترفت بخطئها، وندمت أشد الندم على ما ارتكبته بحقك، وهي الآن تنتظر منك المبادرة)).

تفاءل حسن بذلك وبدأ يشعر بالراحة النسبية والرضا.

****

" سامحت الجميع لأجل عينيك "

مضى الآن أكثر من عام ونصف على انفصالهما ... ترى كيف يكون اللقاء؟ وهل سيكون اتقاءاً بالقلوب أم سيقتصر فقط على العيون؟ أيكون ما حدث آخر عهده بالعَبَرَات؟

مضى صاحب القلب المُعذَّب وكله ترقب، وحذر من ردة فعله عند رؤية ميَّان بعد كل ما حدث.

وعند اللقاء وجد نفسه –نسبياً– في سلام داخلي واستعداد لبداية جديدة ...

وها هما الآن يقفان على شفا جرف السلام.

ولكن كان ما لم يتوقعه من مَيَّان، وجه راكد وعينان باردتان زادتا من فتور اللقاء.

وفي تلك الأثناء مرت أحداث الثمانيةَ عشرَ شهراً المنقضية سريعاً أمام عينه كشريط فيلم سينمائي؛ فشعر حسن بغصةٍ في نفسه وقلبه يعتصر ألماً.

تنهد طويلًا ثم سأل:

- أين مالك؟

ثم لم ينتظر الإجابة ودخل مسرعاً يبحث عن طفله الذي تجاوز عمره العام، ولم تره قط عين أبيه.

وجده جالساً على الأرض يلهو بإحدى لعبه البلاستيكية، اقترب منه وجسمه ينتفض فرحاً، وقلبه يئن وجعاً واشتياقاً، حمله بين يديه وأخذ ينظر في عينيه، ثم طبع قبلةً حانيةً على جبينه، وقد ترقرقت عيناه بالدمع، ضمه إلى صدره ثم أطلق آه صامتة كادت تفتك بقلبه.

أعاد النظر إليه وعيناه تصبُّ الدمع صبًّاً.

والغريب صمت الطفل الرضيع الذي لم يبكِ أو ينفر من إنسان يراه لأول مرة!

أخذ يتفحص عينيه السوداوين، ويحدثه بما فاض به قلبه من كلمات:

- أتعرف يا حبيبي كم اشتقت إليك؟

- أتعرفني أم منعوا عنك حتى صورتي؟

- أنا أبوك؛ الذي أدمى فراقك قلبي، ولأجلك أتيت.

- أفهم تلك النظرة في عينيك؛ والله ما فارقتك بمرادي، وما حبسني عنك إلا ظالم، ظنَّ أن رقاب العباد بين يديه!

- واليوم أنت معي، وقد سامحت الجميع لأجل عينيك.

ثم دخلت مَيَّان عند جملته الأخيرة (واليوم أنت معي، وقد سامحت الجميع لأجل عينيك)

أحسَّ حسن بوجودها فقربها منه وأجلسها، وقبل أن تنطق بكلمة بادرها:

- انظري إلى مالك وإلى جمال عينيه.

-- كل من رآه يخبرني بأنه نسخة من أبيه، وهو بالفعل يشبهك كثيرًا يا حسن.

- مَيَّان! لقد مررنا بتجربة آلمت قلبينا، وها قد قدر الله لنا أن نجتمع مرة أخرى وبيننا هذا الملاك المالك للقلوب (مالك).

لن أخوض في تفاصيل ما مضى، ولا أود التقليب في ذلك، كل ما أود قوله إني سامحتك يا مَيَّان، ولكن قبل أن نطوي تلك الصفحة للأبد، لا بد أن تعلمي أني ما زلت أحمل في قلبي جُرحاً لم أستطع نسيانه.

-- وما هو يا حسن؟

- لم أكن أتخيل يوماً أن الأمر سيصل بكِ إلى مقاضاتي ومحاولة إيذائي بشتى الطرق، وهذا ما لم يتحمله قلبي وما زال يؤلمني، ولكنِّي على يقين بأن الأيام كفيلة بمداواة ذلك الجرح.

-- أعلم أنك تأذيت بذلك يا حسن، ولكنِّي...

- لا بأس يا مَيَّان ... لنفكر فيما يجمعنا، أما الجرح فمع حسن العشرة وبمرور الأيام سيزول بإذن الله

يبدو أن رؤيته لمالك بدأت تخفف من آلامه التي لاقاها من مَيَّان على مدار عام ونصف.

****

" وعاد يطل برأسه القبيح "

مضت أيام، وكلما مـر يوم ازداد حسن تعلقاً بمالك، وظلت الأمور هادئة بين الزوجين لعشرة أيام! ثم تأزمت العشرة بينهما من جديد.

تأكد حسن بمرور الوقت أن مَيَّان اسم على مسمى، ولها من معنى اسمها كل النصيب، ليس المعنى الشائع الذي يظنه الناس لاسم (مَيَان)، ولكن المعنى الحقيقي لكلمة (مَيَّان) بتشديد الياء(١).

كانت تخرج من بيتها دون علم زوجها، وإن سألها أنكرت، مع علمها أن الكذب من أسوأ الصفات التي يبغضها حسن.

وذات يوم استيقظ من نومه على صوتها وهي تتحدث إلى أبيها في الهاتف:

- حاضر يا أبي، جهزت كل الأوراق، وسأنفذ ما طلبته.

تظاهر حسن بالنوم وكأنه لم يسمع شيئاً، ولكن ظلت هذه الجملة (جهزت كل الأوراق، وسأنفذ ما طلبته) تتردد في أذنه مع الكثير من الأسئلة التي تدور في عقله.

- ماذا تقصد مَيَّان؟ وما الذي طلبه منها والدها؟

- أعاد يوسوس إليها بالشرور؟

- لم يزرنا منذ عودة مَيَان إليّ، ولم يتحدث إليّ بكلمة واحدة، ولا تذكره مَيَّان أمامي أبداً، حتى محادثاتها الهاتفية معه لا تكون في حضوري، كل المؤشرات تدل على عدم رضاه عن عودتنا، واستيائه من عودة الاستقرار إلى حياتنا!

وهما يتناولان الغداء سألها عن أبيها، وعما إذا كان يتصل بها، فأجابت بالنفي!

- لماذا تنكر مَيَّان اتصال أبيها؟

---

(١) مَيَّان: فاعل من مَانَ بمعنى كَذَبَ، مَيَّان: كذَّاب

- ما الذي تخفيه عني؟ وماذا يدبران؟

زاد الغموض والريبة، وبدأ يشك في أن يكون الأمر متعلقاً بأبحاثه العلمية.

كان حسن قد توصل إلى نتائج متقدمة في بحثه حول فصل النظائر المُشعة كيميائياً، وتحديداً تخصيب خام "اليورانيوم" لإنتاج "اليورانيوم الانشطاري" (U235) بنسبة أكبر من النسب المعروفة وبتكلفة أقل، وتعتبر مادة "اليورانيوم" (U235) الوقود الأساسي المستخدم في المفاعلات النووية.

تختلف طريقة حسن عن الطرق والتقنيات الشائعة لتخصيب "اليورانيوم"، طريقة يصعب جداً الحصول عليها؛ لذا يحيطها بكامل السرية، فإن علم أحد بما توصل إليه من نتائج ربما كانت حياته في خطر.

وتكمن خطورة البحث في نسبة التخصيب العالية التي توصل إليها حسن؛ فمن المعروف علمياً أن عملية التخصيب لا تشكل -بحد ذاتها- عاملاً في تحديد الاستخدامات السلمية أو غير السلمية لأي برنامج نووي، إنما نسبة التخصيب التي إن كانت عالية، فإن العنصر المُخصب يصلح استخدامه كوقود نووي أو في صنع قلب القنبلة النووية.

- أتكون مَيَّان قد سربت...

- ما هذا الهراء؟! مَيَّان لا تفقه شيئاً في الكيمياء!

- وماذا عن مكالمة أبيها؟ وإن كانت مكالمة عادية، لم أنكرت مَيَّان أنه قد اتصل بها من البداية؟

- لست مطمئناً؛ فمنذ تزوجنا لم يأتِ إلينا بخير، وغموض مَيَّان هذه الأيام، وتعمدها الكذب مع علمها أني أمقت الكذب.

- لا لا، مَيَّان لا تفعل ذلك مهما بلغت درجة الخلاف.

- ولكن ليس ذلك بمستبعد؛ فكيف يؤتمن الكذَّاب؟ وأنى يوثق منه بعهد؟

ظل حسن هكذا لدقائق، ولما كَلَّ من الأسئلة ومن حديثه مع نفسه، خرج يستنشق الهواء النقي.

أما مَيَّان فانتظرت خروجه، ثم انطلقت إلى منزل أبيها لتباشر خططها وتدبيرها!

بـبـسمـة على الوجه وطـعـنـة غـدر في الظهر، أحكمت مَيَّان خطتها للقضاء على حسن، بمساعدة زمرة من زمر الشيطان.

ترتع في دَعَةِ العيش متنعمة بخيره، وفي الخفاء تحيك له الحيل والمصائب ولا تتورع عن إيذائه!

لا عجب أن يستحيل الحب خيانةً وغدراً؛ فمن أدمن الكذب ونقض العهود صارت خلال الشر ديدنه.

يـا أسفاً على زمانٍ اختلطت فيه الأمور، وضاعت معه القيم!

يـا أسفاً على زمانٍ كثر فيه الجحود، وتكالب على الكريم كل لئيم!

يـا أسفاً على فتًى مخدوع، يلقى الرَّدَى في نفسه ويأبى الركوع، ونفسه المعذبة تذوب بين الضلوع!

ومال هذه السحابة السوداء لا تكاد تنقشع عنه حتى تعاوده من جديد!

****

" سقط القناع الزائف "

خرجت مَيَّان من منزل زوجها بحجة زيارة أبيها، ثم ذهبت بصحبة أخيها -المُشار إليه آنفا بالذَنَب- إلى أحد المحامين لمقاضاة حسن من جديد، في محاولة لاستنزافه ومحاصرته بكل الشرور؛ مما يدفعه إلى الخنوع لها ولرغبات أبيها المريضة!

بدأ حسن يرتاب في تصرفاتها التي أصبحت غير طبيعية، ولهجتها التي باتت أكثر حدة؛ فذهبت به الوساوس والظنون كل مذهب.

وذات ليلة تأكدت ظنونه، بل وباغتته مَيَّان بما فاق ظنونه حين استدعاها رأس الشيطان في منتصف الليل، ففارقت منزل زوجها بصحبة أخيها إلى منزل أبيها، ثم اختصمت حسن بتهمة الاعـتـداء عليها بالضرب المبرح وطردها من منزل الزوجية وخطف ابـنـه!

وكانت هذه كلمة النهاية؛ فمن تربى على الكبرياء يرفض الانحناء، ومن شَبَّ على العزة يعاف الخنوع، وإذا اشتد الزمان مَنوع، ولا ينحني رأسه لغير الله، من له وحده يحلو التذلل والخضوع.

وإذا أخلص القلب لقلب ثم لم يجد منه غير الغدر والنكران، زالت عنه الغشاوة وسقط القناع الزائف.

حينئذٍ اتخذ حسن القرار الذي تأخر كثيراً.

- اسمعي ما أقول أيتها المخادعة الكاذبة !

- خبيثةٌ أنتِ خُبث الثعالب ماكرة ... كفاكِ تصنعاً فإنكِ كاذبة ... كفاكِ مراوغة فإنكِ غادرة ... وفيكِ الغدر غريزة تعوي كما تعوي الذئاب ... كفاكِ فقد أصابني منكِ ما يكفيني.

- لا تحدثيني عن الحب والهوى؛ فما عرفتِ الحب يوماً، وأنَّى تعرفيه بقلبكِ الزائف!

- كنت أحسبكِ رقيقة كالنساء، فوجدتكِ مستوحشة لا ترحم طُهراً أو نقاباً ... حفظت وعدي، وكان وعدكِ على صفحة الماء.

- لن يجمعنا مقام بعد اليوم؛ فراق بلا رجوع ورحيل دون عودة ... إنِّي اقتلعتكِ من روحي وانتزعتكِ من قلبي انتزاعاً.

وختم بقول القائل:

(هيا اخرجي من طهر أرض مدينتي ... هيا اغربي لا تدخلي رحابي)

****

وهاك فصل من فصول الألم قد انتهى، فصل من فصول المعاناة والأسى.

وها هو حسن يقف عند نقطة البداية مجدداً، بعدما غابت عنه السعادة وأرهقته الأحزان، ولم يبق منه سوى جسدٍ بالٍ وعينين ذابلتين.

تذكر لمار واختفاءها المفاجئ بعد ما كان بينهما من حبٍّ، وكيف دفعه ذلك إلى الاستجابة للضغوط والصفح عن مَيَّان؛ بدعوى أنها كانت مغلوبة على أمرها -كما قيل- ظناً منه أن الجرح سيلتئم، فعاد أدراجه بعد الكدِّ والعناء، ولم يجنِ غير الهمِّ والشقاء.

قلبٌ شجيٌّ، وعيونٌ يملأها الحزن، وملامح أضحت بائسةً، تجمَّعوا في ليالٍ ظلماء، يكاد اجتماعهم يفتك بالجسد المُحمَّل بالآلام.

هل نعيب الزمان؟ أم نعيب أهله؟ أم نعيب أنفسنا؟

أم العيب فيمن يستمرون في مواجهة الحياة بذات القلوب المتسامحة النقية التي لا تحمل حقداً ولا كراهيةً؛ فيكون عقابهم أن يسكبون العبرات؛ عبرة تلو الأخرى دون هوادة؟!

أنشأ حسن يحدث نفسه:

- لكم اشتقت إلى نفسي ... اشتقت إلى روحي الذكية ... اشتقت إلى بضع لحظات من الفرح.

- لا، لم أعد أطمع في الفرح ... فقط لا مزيد من الألم.

- رفقاً يا دنيا وتمهلي ...

رفقاً بقلوب أضحت مدينةً للأحزان وبحراً من الشجن ...

رفقا فما عاد في الروح متسع ...

لماذا نقسو على أنفسنا لهذه الدرجة؟

أرضـوخ لـمجـتـمع مريض ومعاييره المُجحفة؟

أم استسلام لظروف واهية من صنع ذات المجتمع المتهالك؟

بأي حق يريدون ذبح القلوب ووأد المشاعر؟

أيحاولون ملك إرادتنا؟ أم قتل إنسانيتنا؟

وكيف بعد أن كرمَّنَا الله، وحرَّرَ عقولنا من قيود الفكر، وظلام الجهل، وحررنا من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق الواحد الأحد، يريدون استعبادنا بقيود من صنع شياطينهم؟!

اغـثـنـا يـا الله !!! اغـثـنـا يـا الله !!! أغـثـنـا يـا الله !!!

****

" وداعاً يا بحر "

نسيم البحر العليل، ورائحة المطر الذكية؛ يبددان المشاعر السلبية، ويمنحان النفس الهدوء والسكينة والصفاء.

خرج حسن قُبيل الغروب، ووقف بشاطئ البحر، يبثُّ إليه همومه وآلامه، ويُفضي إليه ويناجيه:

- جئتك يا بحر ألقي بأوراقي، ومن سواك يحفظ أسراري؟!

والآن أبعثرها على رمل الشطآن، يخطفها الموج فتطفو على صفحات الماء، ثم تغوص فتتلقفها الأعماق.

وأنا مثلك يا بحر، كم أحوي في قرارة نفسي وأعماقي.

انظر يا بحر وتأمل أوراقي!

هذه ... أُنشودة حب ضائع،

وتلك ... أنَّات أوغرت صدري،

وأخرى ... عبرات فاضت،

وتلك ... مُناجاة للخالق،

وهذه ... تَرنيمة حب كتبتها لأمي،

وتلك لأبي ... رسالة عرفان وإعزاز،

وتلك في أخوة وأصفياء ... رسالة حب وامتنان،

أما هذه ... فذكرى صديق إلى دار الحق قد سبق،

وكل ما ترجم قلمي وقبله قلبي به قد نطق.

قل لي يا بحر! ستذكرني إذا ما صرت تحت الجنادل والتراب؟

ترى يا بحر سيوحشك غيابي؟

وداعاً يا بحر ... أو إلى لقاء.

ولكن البحر -كعادة الصديق المخلص- لم يشأ أن يترك صديقه دون أن يخفف عنه ويرد جوابه(١):

وما ضئيل سرك بما أحمل بأعماقي!

فانثر ما شئت وامضِ، فلست الأول ولست بآخِر الصفحات!

ولا تخشَ ضياعه، فلكم حفظت من جراحات!

ولا تبتأس، حُبَيْبِي، مُصان أمرك بين جنباتي!

فاهجر إنْ شئتَ أو إن صِرْتَ أسير الجنادل والتراب!

هيهات تُنسى، فلطالما صارعت أشعارُك أمواجي!

فرد حسن مجددًا:

انثرها يا بحر ولا تُبقي كلماتي!

اعزفها لحنا لكلِّ حائرٍ، وكلِّ هائمٍ، وكلِّ عاشقٍ ملتاعٍ،

خَبِّرْهُم بأنَّ العشق لوعةٌ، ووجدٌ واشتياقُ!

يسري في نفس المُتيَّمِ سريان الحمى في المحموم،

خَبِّرْهُم بأنَّ الصديق لا يفارق يوماً صديقه!

وفي شدته يكون دوماً مؤنسه ورفيقه،

انبأهم بأن القلوب الطاهرة؛ تنوح مع الطيور النائحة!

وإن القلب الشريف يحتمل العذاب في سبيل الرحمة!

---

(١) أجاب نيابة عن البحر الصديق العزيز (كارم عبد الله)

"لما رومَيَّان تلتقيان!"

ميَّان الآن في المحكمة لمتابعة قضاياها ضد حسن، وبمجرد دخولها من الباب استوقفتها فتاة تسألها عن مكتب إحدى الموظفات وتدعى (سميرة نعمان).

أجابتها مَيَّان بأنها لا تعرفه، ثم تابعت...

- يبدو أنكِ غريبة عن مدينتنا.

-- أجل، جئت لزيارة إحدى زميلات الدراسة بمدينتكم، وهي تعمل موظفة بمحكمة الأسرة فأردت مفاجأتها بالزيارة.

- أهلا بكِ في مدينتنا الصغيرة.

-- أشكركِ عزيزتي، وأنتِ ماذا جاء بكِ إلى المحكمة؟

- أتيت لرفع دعوى قضائية ضد زوجي السابق.

-- أي دعوى؟ ولماذا؟

- هجرني وطفلي وسافر ثم تزوج من أخرى، ولم يسأل عنا طيلة عام ونصف، وعندما عاد طلقني!

-- آسفة بشأنكِ عزيزتي! ولكن لما فعل بكِ هذا؟ أقصد لما فَضَّلَ عليكِ أخرى؟

- لقد كنت دائماً أحبه وأطيعه وأفضله على نفسي، وأقدم حقوقه على حقوق أهلي، ولكنه خان وغدر، اعتاد أن يسبني ويطردني من منزله، واعتدت أن أتحمل.

أذاقني العذاب ألواناً وكنت صابرة محتسبة، غرّه ضعفي فاستبدلني بأخرى.

-- لا حول ولا قوة إلا بالله! هوني عليكِ يا امرأة، وثقي بأن الله ناصر المظلوم ولو بعد حين.

- حسبي الله ونعم الوكيل.

رن هاتف ميَّان فاستأذنت من الضيفة في الرد على المكالمة، وتركت معها بعض الأوراق حتى تعود.

وعندما عادت بادرتها الضيفة:

-- اسمكِ ميَّان؟ يا له من اسم جميل!

- أشكركِ يا ... !!

اندمجنا في الحديث ولم أعرف اسمكِ، ما اسمكِ؟

-- ...

وفي هذه الأثناء ظهرت سميرة (الصديقة التي كانت تبحث عنها الفتاة الغريبة)

اندهشت سميرة من هول المفاجأة، عندما وجدت صديقتها –التي لم ترها منذ ثلاث سنوات– فجأة أمام عينيها.

وبعد عناق حار ومصافحة مَيَّان، استأذنت مَيَّان في الانصراف، وذهبت الصديقتان إلى مكتب سميرة بالطابق العلوي، تتحدثان بينما تحتسيان القهوة.

- كم اشتقت إليكِ يا لَمَار ! متى عدتِ؟ خبريني عن حالكِ وعن دراستكِ بكندا، وهل ستعودين مرة أخرى أم تنوين الاستقرار بمصر؟

-- وأنا اشتقت إليكِ يا صديقتي وإلى كل حفنة من تراب مصر.

وصلت منذ أسبوعين ولا أعلم إن كنت سأعود مرة أخرى أم لا؟

- ما الأمر؟ هل تزوجتِ؟ وأين وفاء؟ أما زالت بكندا أم عادت معكِ؟

-- دعيني أخبرك عن كل هذا لاحقا، والآن أريد منك مساعدة في أمر ما.

- ماذا؟

-- بخصوص السيدة التي كانت معي منذ قليل.

- ماذا بها؟

-- لقد أخبرتني بأنها جاءت لرفع دعوة قضائية ضد زوجها السابق، وأعتقد أنها ليست بالأولى؛ أودُّ أن أتحرى عن الأمر، إن كان بإمكانكِ؟

- وما سرُّ هذا الاهتمام يا لمار؟! ألم تخبريني بأنكِ لم تقابليها قبل اليوم؟

-- أعلم أن هذا قد يعد تدخلاً في عملكِ وإثقالاً عليكِ،

دعكِ من هذا الأمر يا سميرة، لا أود إزعاجك!

- لم أعرفكِ بهذه العصبية يا صديقتي! على أية حال، أخبريني عن اسمها واسم زوجها.

-- اسمها "ميَّان نوح الفالح"، وزوجها "حسن نور الدين عبد الخالق".

- حسناً، ستكون لديكِ كل المعلومات حالما تنتهين من شرب عصير الليمون.

-- أشكركِ يا سميرة وأعتذر إن وجدتِ لهجتي حادة، سأنبئك عن كل شيء في حينه بإذن الله.

أجابتها بابتسامة:

- سأتحملكِ رغماً عنكِ ... لا عليكِ يا لمار؛ الصديق لصديقه خير معين، وأنتِ نجم ساطع في سماء الأصدقاء.

سأتركِكِ قليلاً وأعود إليكِ بما تحتاجينه من معلومات، ولكن خبريني من أين جئت باسمها واسم زوجها؟

-- جاءها اتصال فانزوت قليلاً للرد، وكانت تحمل بيدها بعض الأوراق في حافظة شفافة، تركتها معي حتى تعود.

- فتحتِ الحافظة؟!

-- بالتأكيد لم أفعل، لمحت اسمها واسم زوجها -بمحض الصدفة- في مقدمة الأوراق، ولاحظت أنها دعوى نفقة بتاريخ سابق، الأمر الذي أدهشني نظراً لتعارضه مع ما أخبرتني.

- وما شأنكِ بكل هذا؟

-- في الأمر سرٌّ.

- لمار الفنانة الرقيقة مرهفة الحس ترغب بالعمل مع رجال المباحث!

ردت عليها لمار مع ضحكة خفيفة:

-- بل أنتِ من ستقومين بهذا الدور يا صديقتي، هيا اذهبي!

- حسناً، أمركِ يا سيدي المحقق.

وعند انصرافها نادتها:

-- سميرة؟

- نعم؟

-- عصير الليمون.

- سيأتيكِ به الساعي حالاً.

****

"حقيقةوحسرة"

أجل إنها لمار...

لمار وميَّان تلتقيان! جمعتهما الصدفة ولا ندري ماذا يخبئ القدر.

أما حسن، فيظن أن لمار ما زالت في بلاد الغربة، بينما هي عادت هرباً منه حتى لا يلتقيا بأي مكان!

تهرب منه في كندا فتأتي إليه بمصر؟! أتهرب منه إليه؟!

بالفعل كانت لمار قد توقعت عودة حسن إلى مصر، بل هذا ما سعت إليه، ولكنها ظنت كلّ الظن أنه -أبداً- لن يخطر بباله وجودها بمصر، فهو يعتقد أنها تزوجت واستقرت ببلاد الغربة.

كانت ميان تقيم بمدينة "هاليفاكس" (Halifax) عاصمة مقاطعة "نوفا سكوشا" (Nova Scotia) الكندية حيث تدرس بكلية "نوفا سكوشا" للفنون والتصميم (NSCAD)، وكان حسن يحضر بشكل شبه دوري من مدينة "يارموث" (Yarmouth) -حيث يقيم- إلى "هاليفاكس" لمشاركة الجالية العربية هناك أمسياتهم الأدبية والثقافية، وهناك كان لقاؤهما الأول.

عادت سميرة بعد أن جمعت معلومات كافية عن ميَّان وقضاياها ضد حسن...

- ما صلتكِ بهذه السيدة يا لمار؟

-- خبريني ماذا وجدتِ؟ فما عدت أطيق صبراً.

- بالفعل ليست هذه أول دعوى قضائية ترفعها ضد زوجها ... وإن كانت تتجمل أمام الناس، إلا أن حقيقتها لم تعد خافية على أحد!

حضرت منذ أكثر من عام بصحبة أحد المحامين لرفع دعوى نفقة ضد زوجها بحجة أنه طردها وامتنع عن الإنفاق عليها، وبعد شهرين عادت ورفعت دعوى نفقة أخرى، ولكن هذه المرة عن طفلهما، ثم توالت القضايا المرفوعة منها ضد زوجها حتى وصل عددها إلى خمس قضايا متنوعة.

وعلى مدار العام لم نجد أيّ ردة فعل من زوجها على غير ما تعودنا في مثل هذه الحالات!

وعلمت أيضاً أن مَيَّان كانت قد تصالحت مع زوجها وأعادها إلى منزله، ومن المفترض أنها تنازلت عن جميع القضايا المرفوعة ضده أو هكذا يظن زوجها، ولكن لم يمضِ أكثر من شهر حتى نشبت الخلافات بينهما من جديد.

وتصاعدت وتيرة الأحداث عندما تهمته بالاعتداء عليها وطردها وخطف ابنه! ثم طلقها على إثر تلك الدعوى الأخيرة، وخاصة بعدما اكتشف أنها جددت إحدى القضايا وهي بمنزله مما اعتبره خيانة وغدراً.

أما سبب قدومها اليوم، فلم أعرف عنه شيئاً.

- هذا كل شيء، والآن دورك ... ما الأمر يا لمار؟

-- سأجيبكِ باختصار:

هذا المُعَذَّبُ جمعني به القدر، وأنار حبه سمائي كما ينيرُ الفضاءَ القمرُ، أحببته وأحبني، أحسست أنه وحده من يصلح أن يكون "أنا"، اتفقنا على الزواج ورتبنا كل شيء، لم يتطلب الأمر وقتاً، فقد وجدت نفسي حين وجدته، كان أبي وأخي وصديقي قبل أن يكون حبيبي، كان لي كل شيء، نصفي الذي يُكملني وأكون ناقصة من دونه...

وهنا لم تتمالك لمار دموعها وانهارت من البكاء، فقامت سميرة من مجلسها، واقتربت منها وربتت على كتفها ومسحت دموعها...

- آسفة يا لمار، لم أشأ أن أثير شجونك، لم أكن أعلم.

-- لا عليكِ يا سميرة، ما ذنبكِ؟!

ثم تابعت وهي تجفف دموعها...

-- بقينا على هذا الحال حتى اقترب الحلم من التحقق، فكان لا بد من الابتعاد.

"هناك التقينا، وهناك افترقنا".

أما مَيَّان، فقد شاء الله أن ألتقيها بهذه الصدفة العجيبة حتى أعرف حقيقتها، وأحسُّ بالألم الذي تعرض له حسن.

-- لقد ظلمته كلانا يا سميرة ... ظَلَمَتْهُ مَيَّان حين غدرت وفعلت به ما فعلت، وظَلَمْتُهُ أنا حين تخليت عنه في أوج سعادتنا وقُبيل زواجنا.

كنت أظن أني هكذا أضحي بحبي وسعادتي من أجل سعادته وجمع شمل أسرة صغيرة، والآن اكتشفت أني قاتلته.

لطالما أخبرني بحقيقة مشاعره تجاه مَيَّان بعد غدرها، وأن حياتهما قد انتهت للأبد، ولم أفهم، أو يبدو أنني أحببت دور الضحية والمُضحي!

دفعته إلى العودة إليها فتجرع مزيداً من الألم، ولا أعلم كيف انتهى به الحال.

رجل بقلب أنقى من القطرة الصافية وروح أعذب من ماء السُحب،

كنا كزهرتين متعانقتين، بالحب نحيا ومنه نستمدُ الدفءَ والقوة، وكنَّا نستقي السعادةَ من مطلعِ الشمسِ ومغربها، ولكنَّ الويلَ للسعداء من انتباهِ الدهرِ بعدَ إغفائه!

لم يتزود من السعادة غير بضع لحظات، ولن أذوق حلاوة العيش بعده.

****

" طيف مالك وتغريدة لمار "

لمار الآن بمصر وحسن بكندا! عاد بعد انفصاله الأخير عن مَيَّان ... بعد أن سار في درب طويل، يحمل الفرح والأمل؛ فانتهى بالغدر والأسى.

أنحل الهمَّ جسمه، وكلما دنت خطواته من حدائق النسيان، عاقبه القلب بالتذكار، وكان حديثه الصمت العميق ... الصمت الصاخب!

كم من عبراتٍ فاضت! وكم من أنَّاتٍ أوغرت صدره! وعمر قد مضى، هيهات يُرجعه!

أيامٌ تَمُرُّ وأسابيعٌ تَنطوي، شهورٌ تَمضي وحزنٌ لا يَنجَلي، علاماتُ شيبٍ على الوجهِ قد بَدَت، وسنواتٌ تهاوت كأوراقِ شجرٍ في الخريفِ تساقطت.

تأوبه طيف "مالك" ولم يعد يقوى على مغالبة شعوره؛ فقد مرت شهور طويلة لم يره خلالها، ولا يدري كم يطول الغياب ولا متى وكيف يكون اللقاء؟!

ومضى كما أصحاب القلوب الطاهرة، ينوح مع الطيور النائحة:

أي بُنيّ .. سامحني

اخترت لك أماً فأسأت الاختيار،

اخترت لك اسمًا حسناً، أدعو الله أن يكون لك منه نصيب، فتملك القلوب وتستلهم العقول،

لك عليّ حسن تعليمك وتنشئتك، ولكن كيف لي وأنت عني بمعزل؟!

خبرني عن حالك يا بُني .. كيف تأكل؟ كيف تشرب؟

بجوار من تنام؟ من يسقيك حين تصحو ليلاً؟

أما زلت تبحث عني لتوقظني، فأسقيك كما كنت تفعل دوماً؟ أم استغنيت اليوم عني؟

أما زلت تنطق أحب الكلمات إلى مسامعي؟ أم نسيتها؟

وتلك الضحكة التي كانت تملأ الدنيا فرحاً حين تلقاني؟

بها كنت أملك سعادة الدنيا وبهجة الحياة...

أما زلت تبحث عني أم أماتوني في عينيك حياً؟

أخبروك أن أباك قد مات؟ أم نصبوا لك غيري مكاني؟

خبرني بُني!

من يتفقد عينيك فَرِحاً، ويتمنى لو يأتي بالدنيا بين يديك؟

من تتعلق برقبته حين تعانقه، وتجري تلاحقه حين يهم بالخروج؟

خبرني بُنيَ!

لعلي ألقاك يوماً قبل أن ألقى المنية!

****

حاول أن يخلد إلى النوم، آوى إلى فراشه وجمع الغطاء تحت رأسه ... ولكن قلب شجي، متى طاب له نوم أو جفن غفا؟! كلما أغلق جفنه، تباغته الذكرى والأسى.

أمسك بهاتفه المحمول وأخذ يتصفح مواقع التواصل الاجتماعي في محاولة للتغلب على الأرق، وإذ به يتوقف عند (تغريدة) أقضت مضجعه:

أيا بسمةً ملأت بالأمس ثغري

أيا نوراً طالما أضاء وجهي

أيا بهجةً فارقتني

وروحاً بكياني كانت تسري

ولم يكد ينتهي من قراءتها، حتى وجد (تغريدة) أخرى مكملة للأولى:

رياحُ الشوقِ تَعصرني

ووجعُ الفراقِ أضناني

ولو أنساك يا أُنسي

حنايا القلب تنساني

(لماااااااااار) تغرد من جديد...

انتابته الحيرة ... مشاعر مختلطة ما بين الفرح والقلق؛ فرح لظهور لمار بعد طول انقطاع وبعد فقد الأمل في اللقاء، وقلق وحيرة مما قرأ ومن ظهورها بعد كل هذه المدة.

- لما عادت لمار؟ وأين كانت؟ وأين هي الآن؟

- في الأمر لغز!

حالة من الارتباك، لا يعرف ماذا يفعل.

- وفاء ... لا بد أن أبحث عن وفاء.

على الفور أرسل رسالة إلى وفاء، ولكنها لم ترد ...

حاول الاتصال بها هاتفياً، فوجد هاتفها مغلقاً.

****

"لن يثنيني عنها إلا الموت"

ظلَّ يومين يبحث عن أية وسيلة للاتصال بوفاء، ولكن دون جدوى...

هداه تفكيره إلى السفر إليها، سافر إلى "هاليفاكس" قاصداً كلية "نوفا سكوشا" للفنون والتصميم حيث تدرس لمار ووفاء.

وكان موفقاً هذه المرة؛ فقد التقى وفاء بمجرد دخوله من الباب، وجدها أمامه...

- حسن!

-- أين لمار يا وفاء؟

- لقد سألتني من قبل وأجبتك.

-- أجبتِ بأنكِ لا تعرفين عنها شيئاً، وقد جئتكِ الآن وأنا على يقين بأن الإجابة ستختلف ... أين لمار يا وفاء؟

- ماذا بك يا حسن؟! ماذا حدث؟

-- منذ ثلاثة أيام تحديداً وجدت (تغريدتين) للمار على "تويتر" (twitter) بعد أن طال اختفاؤها لشهور!

- ماذا قالت فيهما؟

-- اقرأي بنفسك...

أمسكت بهاتفه لثواني ثم أعادته إليه، تنهدت قليلاً ثم واصلت:

- حسناً، الآن سأخبرك ما تريد، ولا أدري إن كان ما سأقوله سيشفي صدرك أم سيزيده اتقاداً! ولكن دعنا نذهب إلى المقهى أولاً، لنجلس وأقصُّ عليك كل شيء.

وبمجرد وصولهما إلى المقهى، بادرها حسن:

-- لا أستطيع صبراً، هاتِ ما عندكِ يا وفاء!

- لمار لم تتزوج كما أخبرَتك يا حسن ... ساءها أن تكون سبباً في انهيار أسرتكم الصغيرة، فقررت أن تضحي بحبها وسعادتها في سبيل إنقاذ أسرة، وإنقاذ طفل صغير من أن يحيا مشتتاً، بمعزل عن أحد والديه.

-- ومن أكد لها أنني بذلك سأعود إلى مَيَّان؟! وقد أخبرتها بأن حياتي مع مَيَّان قد انتهت ولا توجد ثَمَّة فرصة للعودة، ومراراً طمأنتها ببعدها كل البعد عن أن تكون سبباً في انفصالي عن مَيَّان ... وكيف ذلك وقد انتهى كل شيء قبل ظهور لمار في حياتي؟! وما عدت أتجرع الأسى إلا بعد أن اختفت بهذا الشكل المفاجئ!

- كانت تظن أن ظهورها في حياتك أوصد كل الأبواب في طريق عودتك إلى مَيَّان، وكان سبباً في وَأْدِ أي بادرة أمل في الرجوع؛ فقَرَرَتْ أن تتحمل العذاب في سبيل الرحمة ... ما كان دافعها جرحك ولا كانت رغبتها إهانتك، بل خوفها هو من جعلها تتبرأ منك وأنت نبض عروقها!

-- ...

- لا تتعجب يا حسن، فكثيراً ما يجعلنا الخوف ننسلخ من ذواتنا، ونخسر ما لا نقوى على فراقه!

-- وأين هي الآن؟

- عادت إلى مصر، هرباً منك حتى لا تجدها إن واصلت البحث عنها.

-- ألم تقولي بأنها أرادت الاختفاء عن ناظري، وفعلت ما فعلت حتى تمنحني الفرصة للعودة إلى ميَّان؟ كيف ذلك وميَّان بمصر وعودتي إليها تعني عودتي إلى مصر؟!

- حينئذٍ لن تفكر فيها إن عادت المياه إلى مجاريها، وأقمت بمصر مع زوجتك، وإن عدت إلى كندا مرة أخرى فلن تلقاها.

-- آهٍ يا لمار! ما وجدتكِ قاسية هكذا!

كيف؟! لماذا تقسو على نفسها لهذا الحد؟!

- أتذكر حين قلت لك (لا تظلمها، فكلاكما ضحية الظروف)؟

لقد كانت وما زالت كل مشاعرها مقيدة بك يا حسن.

- بعدك كانت تحيا الحياة بلا حياة، كانت تقرأ رسائلكما القديمة، فتبتسم ثم تبكي وتصرخ كما لو كان أحدهم ينتزع قلبها من بين أضلعها وهي على قيد الحياة.

وما كنت لأفشي سرها لولا أنك أخبرتني بشأن تغريدها؛ أتعلم أنها كتبتها وهي معي هنا قبل عودتها إلى مصر؟

وهاك تكملة ما أنشدته لمار:

أيا بسمةً ملأت بالأمس ثغري

أيا نوراً طالما أضاء وجهي

أيا بهجةً فارقتني

و روحاً بكياني كانت تسري

هلا عدت وانشرح صدري

وذهب حزن أيامي

رياح الشوق تعصرني

ووجع الفراق أضناني

وما زلت أُمَنّي نفسي

بغد يأتِ وألقاك

ولو أنساك يا أُنسي

حنايا القلب تنساني

- اذهب إليها يا حسن؛ فما أحبت بشراً بقدر حبها لك.

ما أعجب قصتكما! لم أر مثلكما روحين مترابطين بهذه الكيفية!

-- سأبحث عنها ولن أتركها أبداً ما حييت، فقط أحتاج أسبوعين -على الأكثر- لتسوية بعض الأمور هنا قبل السفر، إضافة إلى حفل توقيع كتابي الأول.

- موفق بإذن الله.

-- يسرني دعوتكِ لحضور الحفل.

- وأنا قبلت الدعوة، أنتظر منك رسالة بتوقيت ومكان الحفل.

-- إن شاء الله ... كم كنت أتمنى أن تشاركني لمار يوماً كهذا، ولكن عزائي أنها_ بإذن الله _ ستشاركني ما تبقى من حياتي.

- أرجو أن تسامحني يا حسن.

-- أسامحكِ؟! ماذا تقصدين؟

- يوم اتصلت بي تسألني عن لمار، فأجبتك أني لا أعرف شيئاً عما حدث.

-- أذكر ذلك اليوم جيداً، ظننت أنكِ -حقاً- لم يكن لديكِ علم بما حدث.

- بالفعل لم أكن أعلم وتفاجأت بذلك مثلك تماماً.

-- إذاً فلم تطلبين مني أن أسامحكِ؟! علام أسامحكِ؟!

- بعد أن أنهيت المكالمة معك اتصلت بـي لمار كي أفهم منها ما حدث، فلم تعطني جواباً شافياً حتى التقينا فأخبرتني بما ذكرت لك في بداية حديثنا، وعلمت أنها أرسلت لك الرسالة الثانية بعد ما علمت بمكالمتك معي، وأنك مُصرٌّ على البحث عنها...

كم تمنيت أن تدركها قبل سفرها إلى مصر، ولكني لم أستطع إخبارك، كانت هذه رغبتها.

-- لا عليك، لم يكن لديك خيار سوى احترام رغبة صديقتكِ، وها أنا ذاهب إليها، ولن يثنيني عنها إلا الموت.

- متعك الله بالعمر المديد والعيش الرغيد!

بإذن الله تسعدا وتعوضا ما فاتكما من الهناء والسرور ... الحُلم على بُعد أيام.

-- ولكن كيف أطيق خمسة عشر يوماً؟! ... هَوِّن يـا رب.

****

"يبدل الله من حال إلى حال"

خمسة عشر يوماً ويلتقي المشتاق بمن يروم، خمسة عشر يوماً ويلتقي الحبيبان بعد فراق مرير.

مضى حسن والسعادة تغمره...

- لِمَا يقولون: "المصائب لا تأتي فرادى."؟!

- لِمَا لا يُقال: "البشائر لا تأتي فرادى."؟

في الوقت الذي يقترب فيه حسن من إكمال بحثه الذي يعمل عليه منذ ثلاث سنوات، تظهر لمار من جديد ... وها قد أتم بحثه بنجاح، وتفصله أيام عن لقياها، ويستعد - أيضاً - لإصدار كتابه الجديد، أول إنتاجه الأدبي!

انتهى حسن من بحثه بنتائج مُرضية جداً، بل حقق كشفاً لا يتوقعه أحد فيما يخص فصل النظائر المشعة عن النظائر المستقرة بطريقة أسهل وتكلفة أقل.

يحلم -كغيره ممن يعشقون كل حفنة من تراب وطنهم- أن يرد الجميل لبلده ومرتع صباه التي نشأ بها، وترعرع بين جنباتها، وتعلم في مدارسها، وعاش فيها طفلاً وصبياً ثم شاباً، يحمل مشعل الأمل، ويتمنى أن تستفيد بلده من علمه، وأن يُسهم بحثه في رفع شأن مصر، ووضعها في مصاف الدول المتقدمة المحصنة بقوة العلم وسواعد أبنائها المخلصين.

ونظراً لخطورة النتائج التي توصل إليها بحثه، يحيطه بالكتمان والسرية، حتى أنه لا يحتفظ بأي أوراق أو ملفات تخصُّ نتائج البحث النهائية على حاسوبه الشخصي، ولا أحد يعرف أنه يعمل على هذا البحث -من الأساس- سوى أستاذه وأبيه الروحي (د. إبراهيم).

ينتظر العودة إلى مصر، فيذهب بصحبة "د. إبراهيم" لمقابلة أحد المسئولين بالدولة ليعرض عليه بحثه واقتراحاته بشأن تحقيق الاستفادة منه؛ منشرح الصدر، تعلو الابتسامة ملامحه الهادئة، سعيداً بأن لمار ستشاركه تحقيق الحُلم الأكبر.

أما ميَّان، فقد تغير حالها من سَيِّءٍ إلى أَسوأ...

يبدو أنها قد أصيبت بلوثة عقلية؛ أضحت تصرفاتها غريبة ومريبة لكل من يراها، وبعد فترة طويلة من الاكتئاب بدأت تظهر عليها علامات الهذيان.

تتمتم - أحياناً - بكلمات غير مفهومة، - وأحياناً- يُفهم من كلماتها لومها لنفسها؛ فترى أنها شريرة وآثمة، وأنها ارتكبت ذنباً لا يُغتفر، وأنها تستحق لذلك العقاب إلى الأبد، ثم تحولت إلى لوم أبيها بأنه سبب كل ما حدث لها، وأن شروره وآثامه قد تسببت في تدمير حياتها وأسرتها...

- كنا أسعد زوجين، حتى اقتحمت حياتنا فدمرتها.

- ماذا جناه حسن حتى أفعل به ما فعلت؟!

- ما ذنب هذا الطفل الصغير في أن يُحرم من أبيه؟

- وما ذنب أبيه؟

- لم ترحمه الدنيا عندما ظن أنها تبتسم، أظهرت له قسوتها وغمرته بالجروح والطعنات، تَمَثَّلَت له الدنيا بوجهها القبيح في صورتي.

- كل هذا بسببك ... أنت السبب ... لم ترتضى أن ننعم بالسعادة والأمان، وها أنا ذا أحيا جسداً بلا روح، خرجت روحي وفارقتني ولم يبق إلا الجسد المشبع بأقسى أنواع الآلام؛ فيا أيتها الحياة البائسة لما وجودكِ الآن؟!

ولم يمر وقت طويل حتى تطورت لديها أعراض المرض النفسي، فبدأت تظهر عليها بعض أعراض اضطراب الإدراك الحسي؛ تسمع صوت الرياح فتظن أنه صوت حسن يتحدث

إليها، وتسمع حفيف الشجر فتتوهم أنه صوت أناس يتهامسون عليها، وترى نوراً بعيداً تتصوره ناراً تزحف نحوها...

- حسن! جئت يا حسن؟

- لِما تأخرت هكذا؟ حضرت لك العَشاء، ومالك يلعب بغرفته.

- هيا غيّر ملابسك حالما أنتهي من تسخين الطعام!

- هيا يا مالك، جاء أبوك وأحضر لك الحلوى التي تحبها.

- حسن؟ أين ذهبت يا حسن؟

- أبي؟ ماذا جاء بك الآن؟ هل حدث لأمي مكروه؟

- لا يا أبي، لن آذيه، ابتعد عنَّا ... قلت لك ابتعد، لا أريد أن أراك بعد اليوم.

- حسن؟ حســن؟ أرجعوه إليّ ...

ساءت حالتها يوماً بعد يوم، حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن.

ومع تبدل حال ميَّان وتدهور صحتها النفسية والبدنية، بدأ أبوها يشعر بالذنب تجاهها وحاول التكفير عن ذنبه، ولكن بعد فوات الأوان، بعد أن أصبحت ابنته في حالة خطرة لا يُرجى البراءَ منها.

لم يقوَ على رؤية ابنته تنازع الموت، وتنطفئ روحها شيئاً فشيئاً، وهو عاجز كل العجز عن مد يد العون لها.

بدأ يشعر بضعف في حركة عضلات الجانب الأيمن من الوجه، مع ثقل اللسان وعدم وضوح مخارج الحروف، وفقد مفاجئ للقوة في الجانب الأيمن من الجسم.

أصيب بجلطة دماغية، نُقل على إثرها إلى المستشفى، ثم مات بعدها بأيام.

وكانت هذه نهاية رأس الشيطان، بعد أن غربت شمس ميَّان، وأسلمت نفسها للمرض النفسي.

أما شقيقها فقد تورط واثنين آخرين في حوادث متعددة لسرقة السيارات المستأجرة بأوراق مزورة ثم بيعها ... وهو الآن هارب من العدالة.

كان رجال المباحث على وشك القبض عليه في مخبأه -بمنزل أحد أصدقائه- قبل أن يلوذ بالفرار.

قيل إنه فر إلى منطقة حدودية تمهيداً للهروب إلى خارج البلاد، ولكن لا توجد أخبار مؤكدة حول ذلك، ولا أحد يعرف مكانه الحقيقي حتى الآن.

****

"آهٍ يا لمار"

لما علم حسن بما جرى لميَّان، أشفق لحالها وأخذ يدعو لها بالشفاء، رحمة بوليده، فضلاً عن أنه لم يكن يوماً مجرداً من الإنسانية، حتى مع من أذته وأذاقته المرائر.

جأمًا لمار، فلا تعلم -بعد- ما دار بين حسن ووفاء وما عزم حسن على فعله، تشعر بالوحشة والألم، باتت تحدث نفسها وكأنها تناجي حسن:

- أكاد أختنق في غيابك، يرعبني غيابك.

- لقد كذبت حين قلت لك إنني سأتزوج من غيرك، وما قلت ذلك إلا خوفاً وحباً، ومن فرط عشقي لك قتلت نفسي وقتلتك!

- كم هو مؤلم رحيلك يا أجمل من عرفت، يا من أشتاق إليه حدَّ الموت.

- لا خير في الدنيا بغير روح تؤنس وحدة القلب.

- يقولون إن للقلب ذاكرة ... يا ويح قلبي، كيف أمحو ذاكرتي؟!

- كيف الخلاص وحبك يتغلغل في أعماق أعماقي! كيف الخلاص وعبق كلماتك يفوح من بين خلجات روحي! كيف الخلاص وأنت تسكنني!

قررت أن تكتب إليه رسالة، ولكن هذه المرة لن ترسلها...

إلى من استوطن روحي وأدمى فراقه فؤادي،

أما بعد؛

أكتب إليك للمرة الأولى بعد بضع شهور من فراقنا،

أعلم أني قد ألمتك بما فعلت، وربما جعلتك تكرهني ... أنا مثلك، لم أتخيل يوماً أن نفترق، ولم أستطع حتى التفكير في ذلك، ولكني آثرت الرحيل جبراً لا اختياراً؛ لم أتحمل الشعور بأن أبني سعادتي على حساب سعادة غيري، حتى مع ما ذكرت لي، كنت أظن أن باب

العودة لم يُغلق بعد ولم أشأ أن أكون السبب في إغلاقه ... ولما وجدتك مُصراً على البحث عني، ما كان عليّ إلا أن أقتل لديك ذلك الأمل، فأوهمتك بأني سأتزوج من غيرك حتى تنصرف إلى حياتك وتعود إلى زوجتك وطفلك، وبعدها سافرت إلى مصر حتى لا ألتقيك ولو بالصدفة فترى الحقيقة في عيوني، ومن ناحية أخرى إن قررتَ العودة إلى مصر فلن يغلب على ظنك أني بمصر.

قلت سيحزن يوماً أو أسبوعاً أو حتى شهراً، وفي النهاية سيتقبل الأمر الواقع وينسى ما كان بيننا وينساني ... قلت ذلك وعيناي تفيض دمعاً وقلبي يقطر دماً، كنت أموت قهراً... بعدك تصحرت الأماني وأمسى الدمع صديقي الذي لا يفارقني.

قابلت زوجتك قدراً، ثم علمت بما حدث منها وتكرار الإيذاء، ثم انفصالكما، فتألمت لألمك، بل كان ألمي مضاعفاً، كوني خططت لذلك بطريقة غير مباشرة، ابتعدت عنك في ذروة سعادتنا، ودفعتك للعودة إليها فحدث ما حدث.

أعرف أن الكلام الآن لن يفيد، ولكني أرجو أن تسامحني على كل لحظة ألم مررت بها بسببي، أتحمل أي ألم إلا شعوري بأنك تكرهني، أعرف أني أستحق العقاب، ولكني والله ما فعلت ذلك إلا بدافع الحب وأعلم أن قلباً يعرف الحب لن تتسلل إليه الكراهية.

أشعر أني لن ألتقيك وأن ذاك اللقاء سيظل آخر عهدي بك؛ لذا سأحتفظ برسالتي هذه في دفتري، فإن متُّ ولم يُقدر لنا اللقاء تقرأها فتسامحني وتدعو لي بعد وفاتي ... ولعل القدر الذي جمعنا دون سابق موعد أو معرفة يجمعنا مرة أخرى! لا أطمع سوى في بضع لحظات، تطيب روحي ويُشفى قلبي برؤياك، وتطمئن نفسي بعفوك عني.

وبعد أن انتهت من الرسالة، أغلقت دفترها ثم أغمضت عينيها والدموع تترقرق منها.

هكذا حال لمار، تبكي صَبابَةً ويُضنيها الجَوِيَ، وقد تبدد لديها الأمل، لم تكن يوما بهذا الاستسلام!

أما حبيبها، فكل يوم يزداد نبض قلبه ... فقد مضى من الأسبوعين أسبوعٌ، وحسن يحصي الساعات والدقائق.

- آهٍ يا لمار ... أسبوع وتلتقي العيون، وينفك حبل الحنين، وتصمت قافية الحروف، وتصدح البلابل بالغناء، وتعانق الروح السماء.

أيا حبيباً طاب القلب بسكناه ...

أهيم به شوقاً ومن لي سواه؟! ...

تشتاق عيني لرؤياه، وتسأل روحي: متى تلقاه؟

****

"نجاح جديد . . واقترب الحُلم الأكبر"

قررت وفاء إخبار لمار بما حدث كي تُسعد قلبها، وتُخرجها من حالة الاكتئاب التي تعانيها بسبب فراق حسن، وها هو عائدٌ إليها، يحمله الشوق ولا يفصله سوى يومان.

بمجرد سماع لمار للخبر، انتفض قلبها بقوة وسرت في أعضائها رعدة، واغرورقت عيناها بالدموع.

دارت بعينيها في أرجاء غرفتها الصغيرة ذات الجدران الوردية، وثبتت نظرها على رسمة العصفور على الحائط المقابل، تتمنى لو كانت تملك جناحين كجناحيه فتطير بأقصى سرعة حتى تصل إلى محبوبها، فتستعيد روحها التي فارقتها حين فارقته.

كانت بالأمس جَزِعة، تُرثي نفسها، وتتحسر على فوات الأوان واستحالة اللقاء، واليوم تأتي وفاء لتزيح عنها جبالاً من الهموم والأسى، وتبدد أحزانها الجاثمة على قلبها.

وبعد أن هدأت واستوعبت الأمر، أخذت تتنغم في نفسها بما فاض القلب من كلمات:

يا رفيقَ الروحِ غنِّ لي

فإن الهمومَ أثقلتني

وامسح بأناملكَ أدمُعي

وافتح بالأملِ أعيني

تطربُ بألحانكَ مسامعي

ويترنمُ فرحاً فؤادي

فتروقُ الحياةُ وتصفو لي

ويزيدُ بقربكَ ابتهاجي

بينما حسن يستعد لتوقيع كتابه الأول (By the banks of Mackenzie) (على ضفاف ماكنزي) في حفل مقام على هامش أحد المهرجانات الثقافية "بمونتريال"...

انطلق الحفل بحضور عدد من رموز الثقافة والأدب، كما شهد حضور مجموعة من أبناء الجاليات العربية الذين رافقوا حسن في الأمسيات الأدبية والثقافية بمدينة "هاليفاكس" ؛ جاءوا إلى "مونتريال" لدعم ومساندة ذلك الكاتب والمفكر المصري الشاب الذي لطالما أمتع قلوبهم قبل آذانهم بروعة بيانه وعذوبة ألفاظه وقوة منطقه، وكثير منهم لا يعلم أنه –في الأساس– متخصص في الكيمياء!

بدأت الفعاليات بكلمة رئيس الهيئة المنظمة للحفل، تلتها قراءة نقدية لأحد كبار المفكرين؛ أشار خلالها إلى محتويات الكتاب، وأهم الملامح والأبعاد الفكرية والجمالية التي يحملها بين طياته.

وقبل التوقيع أُعطيت الكلمة للكاتب "حسن" الذي استهَّل كلمته بالترحيب بالحضور، والتوجه بالشكر والتقدير إلى كل من ساهم في إنجاح وخروج الكتاب للنور، ثم انتقل إلى استعراض الهدف من الكتاب، وأهم الأسباب التي دفعته إلى تأليفه.

ثم كان مسك الختام ... لوحة من أجمل ما أنشد:

وعادَ قلبي يَنبضُ بالحياة

وغَدا قَلمي يَرسمُ الأملَ

بفضلكِ يا نورَ الحياة

صَحا قلبي بعد ما ثَمِلَ

وفجرُ الحبِ ها قد لاح

وعبيرُ عطرِ الشوقِ فاح

فَسِرتُ وأنتِ وُجهَتي

أجوبُ بُحوراً وبُحوراً

ولستُ بسباحٍ ماهرٍ

ولا أَجدُ للحبِ دُستوراً

أيا شَمساً تَسطعُ فتُضئُ أيامي

أيا نَجماً يَهديني في ظُلمةِ الليالي

أيا طفلةً تَختبئُ بجفوني

حياتي .. بَهجتي .. وجُنوني

مَلَكْتِ قلبي

وإليكِ أشواقي وحَنيني

يا واحةَ القلبِ وأميرةَ الحُسْنِ

خُذي بيَدي ودَعِيْنِي

أغلبُ رَعشةَ الشوقِ في صَدري

لنُكملَ حُلماً

رامَ الفؤادُ بقُربهِ

ونَبني عُشا

بالحبِ نُرسي قَوَاعِدَهُ

وهنا انهال الحضور بالتصفيق الحار، والقيام لتحية الكاتب الشاب وأخذ توقيعه ... حينها طلب حسن من أحد محبيه تبادل الأدوار؛ بأن يوقع له القارئ وهو المؤلف في مشهد لم نعهده من قبل! ربما فعل حسن ذلك إقراراً واعترافاً منه بالعلاقة التبادلية والصلة الوثيقة بين المؤلف والقارئ.

وبهذا يكون الحفل قد انتهى على أجمل ما يكون، وبانتهائه بدأت رحلة الرجوع.

كانت وفاء قد حرصت على حضور الحفل وتهنئة حسن، وعند وداعه أخبرته أن لمار بانتظاره، وتمنت لهما دوام السعادة.

- كم تمنيت أن أحضر حفل زفافكما، ولكني سأحرص - بإذن الله - على زيارتكما فور وصولي مصر.

-- سننتظركِ - بإذن الله -.

- وأنا أنتظر صور حفل زفافكما المبارك، لا تنسوا إرسالها.

-- بالتأكيد لن يفوتنا أمرٌ كهذا.

ردَّت بابتسامة خفيفة:

- أتمنى أن يرزقكما الله فيضاً من السعادة من غيث عطائه الذي لا ينفد.

-- آمين يا رب وإياكِ، أعجز عن شكركِ يا وفاء، وأحسد لمار على صدق صداقتكِ وجميل وفائكِ.

- ما فعلت إلا ما يمليه ضمير "إنسان" ... لمار صديقتي التي لم أجد مثلها، وأنت إنسان نادر في هذا الزمان، وحبكما من نوع فريد، لا يخشى صروف الليالي والأيام، ولا يمكن أن تبدده حوادث الزمان.

بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير.

****

"النهايــة"

أقلعت طائرة حسن -بعد حوالي أربع ساعات من انتهاء الحفل- في رحلة تزيد مدتها عن العشرة ساعات.

وفي صبيحة يوم الوصول، استيقظت لمار فزعة تنادي باسم حسن، نهضت من مكانها مسرعة ثم ارتدت أجمل ملابسها، وهمت بالذهاب إلى المطار لاستقبال الحبيب العائد، تمضي بالحنين، يحملها الشوق واللهفة، ولا يفصلها سوى بضع ساعات عن لقاء الحبيب العائد بعد غياب ظن بعده كل منهما أن لا تلاقيا.

وصلت إلى المطار وجلست في صالة الانتظار، تحصي الدقائق، ونبض قلبها أسرع من دقات الساعة.

لم تنتبه إلى من يجلس بجوارها ... امرأة جاوزت الخمسين من عمرها تمسك مُصحفاً، تستغل ساعات الانتظار الطويلة في تلاوة بعض آيات القرآن الكريم، والدعاء بسلامة وصول ابنها الذي فارقها منذ خمس سنوات، كم توسلت إليه أن يبقى بجوارها وإخوته! ولكنه لم يستجب لنصحها، وأصرَّ على السفر من أجل تأمين حياة أفضل لأسرته الصغيرة، مثله كغيره من أبناء الوطن الكادحين؛ يسافر أملاً في تحسين مستواه المعيشي ورد الجميل إلى هذه الأم الرؤوم، التي كرست حياتها بعد وفاة زوجها لخدمة وتعليم ابنيها وابنتها الصغار.

تجلس بجوار الأم فتاة في الثالثة والعشرين من عمرها، ابنتها التي تزوجت بعد سفر أخيها بعامين، حرمته الغربة من حضور حفل زفاف أخته الوحيدة، فقد كان همه الأكبر رفع العبء عن كاهل أمه ومساعدتها في تزويج أخته وحسن تعليم أخيه الصغير ...

على يمين الأخت يجلس زوجها وأخيها الأصغر صاحب الستة عشر عاماً ...

الجميع ينتظر في ترقب وشوق، وعيونهم تفيض بالحنين.

وقبل ساعتين من موعد الوصول، أعلنت سلطات المطار اختفاء الطائرة من شاشات الرادار.

تعالت صيحات وصرخات الجميع، سيطر الخوف والهلع على المكان ... الأخت تبكي محتضنة –في حنو– أخيها الصغير، وزوجها يربت على كتفيها محاولاً التخفيف عنها.

- لا بد أن هناك خطأ ما وستعود الطائرة - بإذن الله - ، الأمل ... الأمل ، فالله موجود.

بينما الأم لم تستطع النهوض من مكانها، ممسكة بمصحفها، تتدفق من عينيها الدموع، ولا ينطق لسانها إلا بقول: (يـا رب! ... يـا رب!).

أما لمار فقد أصابها الذهول، تنتفض من الخوف وقلبها يرجف بشدة.

ومع تأكد اختفاء الطائرة وانقطاع الاتصال بطاقمها بادرت السلطات المصرية بإطلاق حملة جوية بحرية للبحث عن الطائرة المفقودة دون أن تتوصّل إلى أي معلومة مفيدة.

كانت لمار غائبة –تقريباً– عن الوعي، فاقدة الإحساس بما حولها، حتى قاطعها صوت الأم المسكينة التي لم يُخَيَّل إليها يوماً أن ابنها الذي خرج حالِماً سيعود محمولاً، خرج حاملاً أحلاماً وطموحاتٍ تُعانقُ السماء، وسيعود محمولاً وقد فاضت روحه إلى رب السماء.

- يا رب إن ابني قطعة من كبدي، ونور عيني، وزهرة فؤادي، ربيته على عيني وخطفته يد الرَّدى ... كنت أُمَنِّي نفسي بنظرة يُلقيها عليّ قبل وفاتي، أيأتي يومٌ أشيعه إلى المماتِ؟ اللهم إن كان حياً بأرضٍ أو عالقاً في جوٍ فاحفظه ورده إليّ فينجلي همي ويزول شقائي، وإن كنت قبضته فارحمه برحمتك التي وسعت السماوات والأرض، واحشره مع سيد الخلق وخاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم، ومُدَّنِي اللهمَّ بالصبر وهوِّن عليّ فجيعتي ... رُحماكَ يـا رب فالمصيبة فوق احتمالي.

مرت ساعات ومازال الغموض يكتنف مصير الطائرة المفقودة، وما زال الذهول يسيطر على لمار وقلبها يختلج، تنهمر من عينيها الدموع، وتنبعث من صدرها الزفرات، وبين جنبيها لوعة اعتلاج.

- يا آهة تمور في مسارب الضلوع، يا غربة تجتاحني وتهزُّ كياني ... بردٌ يسري في أنحائي، يكاد يمزق أوصالي، يغتالُ الروحَ ويعصفُ بالفؤادِ، أزِفَ الرحيلُ، وما بقيَ من الشجيِ إلا حشاشة مُحتضرِ.

****

تمت بحمد الله

****

الفهرس

- مقدمة..... 11
- وأتوا البيوت من أبوابها..... 13
- ما أجمل البدايات..... 17
- ظهور رأس الشيطان..... 19
- بُشرى لم تكبح الأسى..... 23
- أضحى كابوسًا..... 27
- لا مفر من الرحيل..... 31
- إنها الغربة يا المغترب..... 33
- بزوغ أمل جديد..... 35
- حب ينمو وارتباط وشيك..... 39
- خَفَتَ وهج النور..... 45
- حنين وإنشاد حزين..... 49
- تفكير في العودة..... 51
- سامحت الجميع لأجل عينيك..... 55
- وعاد يطل برأسه القبيح..... 59
- سقط القناع الزائف..... 63
- وداعا يا بحر..... 67
- لمار ومَيَّان تلتقيان..... 69
- حقيقة وحسرة..... 73
- طيف مالك وتغريدة لمار..... 77
- لن يثنيني عنها إلا الموت..... 81

- يبدل الله من حال إلى حال..... 87
- آهٍ يا لمار..... 91
- نجاح جديد .. واقترب الحُلم الأكبر..... 95
- النهاية..... 99

للتواصل مع الكاتب:

https://www.facebook.com/Sayed.Gamal.Kotb

يسعدنا تواصلكم

حقوق الطبع و النشر محفوظة